محمود تيمور

فرعون الصغير

وقصص أخرى

الطبعة الاولى — سنة ١٩٣٩

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

المصادرُ التى ألهمتنى الكتابة

« رغبت الجامعة الأمريكية إلى طائفة من الكتاب المعاصرين أن يتحدث كل منهم فى المصادر التى ألهمته الكتابة . وقد كان المؤلف أحد من رغبت إليهم الجامعة فى ذلك . وهذا نص حديثه الذى تحدث به فى قاعة المحاضرات مساء السبت ٥ مارس سنة ١٩٣٨ ميلادية . »

إذا نظر الكاتبُ نظرةً سطحيةً إلى هذا السؤال : ما هى المصادرُ التى ألهمتْكَ الكتابة ؟ أحَسَّ فيه على الفور شيئاً من التوريط ، فما كان أحرَى « بالجامعة الأمريكية » أن تكشفَ الستار عن حقيقة غرضها ، وتقولَ للكاتب فى صراحة : حَدِّثْنا عن حياتك الأدبية ، وخَبِّرنا عن رأيك فى نفسك ! إذْ أن الكاتب وهو يتكلَّم عن المصادر التى أَلْهَمَتْه ، لا يتكلَّم فى

الحقيقة إلا عن نفسه ، والحديثُ عن النفس يُثير التَهيُّبَ فى الكاتب ، والامتعاض من السامع ، ومن ثَمَّ كانت الصعوبة . ولكننا لو نظرنا إلى السؤال نظرةً نافذة ، وجدنا الإجابةَ سهلة ميسورة ؛ فالحق أن الكاتب إذْ يَدَّعى أنه أقل الناس تحدثاً عن نفسه ، تراه أكثرهم ثرثرة وإفشاء لأكتم أسراره ؛ فكل ما يخطه قلمه صحائفُ ناصعةٌ يترجم بها عن إحساساته وميوله ، ورغبات نفسه ودفائنها . والفرق الوحيد بين الحالتين أن الكاتب فى عمله الأدبىّ يتحدثُ عن نفسه وهو لا يدرى أنه يفعل ؛ أما فى هذه الحالة ، أعنى الإجابة على مثل هذا السؤال ، فهو يكتب وهو عالم أنه يكشف عن نفسه فى تَعمُّد . على أنه سيجد — بحكم هذه الحالة الواعية — مجالاً متَّسِعاً أمامه للتضليل إذا أحب أن يضلِّل . أو بمعنى أشرفَ من ذلك ، إنه سيجد نفسه مضطرًّا لأن يكتب فى داخل حدودٍ معينة يرسمها لنفسه . وعلى كل حال فإنى أرى من الشجاعة أن يتقدم الكاتبُ منا ويرفعَ الستر عن حقيقة نفسه بنفسه ، فذلك خير من أن يتولى أمرَه غيره ، و « بِيَدى لا بيد عَمْرو » !

والآن نحاول أن نحدد معنى « المصادر التى تُلْهِم الكاتب » . إنَّها فى الواقع لا تتعدَّى ثلاثةَ أمور أساسية : وِرَاثته ، وبِيئَته ،

وحوادث خاصة تصادفه فتحوّل مَجْرَى حياته من طريق إلى طريق . وإنى أرى أن هذه الحوادثَ من أكبر العوامل فى إظهار الأديب أو إخفائه ؛ فقد يَرِثُ الإنسانُ مؤهّلات النبوغ ، ثم تساعده البِيئَة على إنماء هذه المؤهلات ، فلا يلبَثُ أن تفاجئه حادثة مهمة فى حياته تضطره إلى سلوك طريق غير الطريق الذى يسير فيه ؛ ومن ثَمَّ تَفْتُرُ مواهبه شيئاً فشيئاً حتى تستغرق فى نوم عميق . وإذا أردنا التوسُّع فى التفسير ، قلنا : إن هذه العناصر الثلاثة تشمل مواهبَ الكاتب التى خُلِقَتْ معه ، وتَهَيَّأَتْ له من طريق الوراثة ، فلا فَضْلَ له فى وجودها ، مضافاً إليها مُخْتَلِفُ المؤثرات والحوادث التى اعترضتْ حياته فأنْمَتْ هذه المواهب ، أو أضْعَفَتْها ، وكان لها أثر فى توجيهها نحو الهَدَف الذى رمت إليه .

* * *

عند ما أَلْتَفِت خلفى متكشِّفاً مَاضِىَ حياتى ، أرى أربعة عوامل أساسية قد عَمِلَتْ فى تكوينى كاتباً :

الأول : والدى أحمد تيمور ، والثانى : شقيق محمد ، والثالث : حوادث خاصة كان لها تأثير فى تحويل مجرى حياتى ، والرابع الأخير : مطالعاتى .

فوالدى جدير أن يكون قد أورثنى مؤهلات الكتابة ، وقد تعهّدنى منذ النشأة ، وحبّب إلىّ المطالعة والتأليف . وأخى هذّبَ ذلك الحب وأذْكاه . وحوادث حياتى ثم مطالعاتى هى التى عيّنَتْ لى تلك الوِجْهَةَ التى أترسّمُها الآن فى حياتى الأدبية .

وُلِدْتُ فى « درب سعادة » وقضيتُ طفولتى فى منزل يُشبه القلعة المهدّمة ، ونشأتُ وأنا أرى لوالدى خِزانةَ كُتُب قد خصّها بكامل عنايته ، ولم يَبْخَلْ عليها لا بوقته ولا بماله . فكنت أنمو وهى تنمُو معى ، فتآلفنا وتحابَبْنا ، ومن ثَمَّ تولّد فىّ الغرَامُ بالكتب ، فبدأت أجمعُ ما تيسّر لى جمعُه منها . وخطر لوالدى أن يُحفّظَنا — أنا وأخَوَىَّ — معلقة « امرئ القيس » ، وكانت مهمةً شاقةً عليه وعلينا ؛ فقد كنا فى سنّ لا نستطيع معها فَهْمَ بيتٍ واحد منها ، واستطعنا بعد أشْهُرٍ استظهارَها جيّداً . وعلم أستاذُ اللغة العربية فى المدرسة أننى أحفظ المُعلّقة ، فطلب منى أن أعْتلِىَ المِنصّة ، وأنْشِدَ إخوانى التلاميذَ إياها ، فأنْشَدْتُها ، فسُرَّ الأستاذ ومنحنى الدرجة كاملة . ولم أعُدْ ألوم والدى على خُطته معنا .

ولما تُوُفِّيَتْ والدتى ، ثم جدتى لأبى ، عَزَّ على والدى البقاء فى منزل « درب سعادة » . وكانت صحتُه قد اعتلّت ، فنصح

له الأطباء بتبديل ذلك الوَكْرِ الرَّطْب ، واختيار مسكن خَلَوِيٍّ جافٍّ ، فانتقلنا إلى « عين شمس » . هناك قضيتُ أطيبَ أيام صباى . كان منزلنا الجديد ريفيًّا صميما ، يتوسَّط خمسة أفدنة مقسَّمةً حدائقَ ومزارعَ اعتنى والدى بتخطيطها وغَرْسِها فى ذوق حَسَن ، فكنت ألعب وأمرح مع أخَوَىَّ فى هذا المكان الفسيح وَفْقَ هوانا . وكانت حياتُنا فى هذه الفترة أقربَ إلى حياة السذاجة الريفية ، فقد كان المنزل صغيراً مبنيًّا باللَّبِن ، مُؤَثَّثاً فى غير تَرَف ، وكانت لنا خيول نَجُوبُ على ظهورها صحراء « كفر جاموس » وغيطان « المطرية » .

وكانت دارنا مَهْبِطاً لكثير من علماء العصر وفضلائه ، أذكر منهم : الشيخ محمد عبده ، والشيخ الشنقيطى الكبير ؛ وهما ممن تلقى والدى العلم عنهم .

أما الشيخ محمد عبده ، فكثيراً ما ركب القطار معنا من « عين شمس » إلى القاهرة . وما زالت صورتُه ماثلةً أمام عينَىَّ ، بوجهه الصَّبُوح ، ولحيته الجميلة ، وجِلْسَتِه التى يَحُفُّ بها الوقار والجلال . فكنت أُصْغِى إلى حديثه المتزن إصغاء مسحور .

وأما الشنقيطى الكبير ، فقد صَحِبْتُ مرةً والدى إلى منزله — ولعلها مرَّات — ولن أنسى فى حياتى ذلك المَنْظَرَ العجيب

الذى شاهدته هناك : شيخ أسمرُ هزيل يتكلم العربية الفصيحة بلهجة مَغْرِبيَّة ، يجلس متربعاً ، فى وسط حجرة تكاد تكون عارية من الأثاث ، فليس فيها إلا حصير وبعض وسائد منثورة هنا وهنالك . وخلف الشيخ أسفار متراصَّة كأنها تِلال ، وبجواره مِبْصَقَةٌ لا يستغنى عنها . ومن عجيب أمره أنه إذا ذُكِرَ اسم كتاب وأراد أن يُرِيَهُ زائِرَه ، تحرك فى مقعده حَرَكَة ، ثم مدَّ ذراعه ، فإذا بالكتاب فى يده .

ولا يسعُنِى أن أُغفل فى هذا المقام الإشارةَ إلى عَمَّتى « السيدة عائشة التيمورية » الشاعرة ؛ فقد أدركتُها فى أُخْرَيَاتِ أيامها ، وإنى لأذكُرُ كيف كانوا يُدْخِلُوننَا إليها فى حجرتها الخاصّة ، حيث تقضى شيخوختها . كانت تحتَفِلُ بنا وتغمُرُنَا بعطفها وحنانها . إنى لأتَخَيَّلُها الآنَ وهى جالسة على مقعدها الفسيح تَتَراءى عليها المَهابة ، فتتمثّلُ لى صورة الملكة « فكتوريا » وهى متربعةٌ على عرشها . وكانت فى ذلك الوقت بادِنَةً متَرهِّلَة ، لا تترك مَقْعَدَها إلّا فى النادر ، يحيط بها سِرْبٌ من القِطَطِ ، مُعْظَمُهُ جاوزَ عهد الشباب ودخل فى سِنِّ الكهولة ؛ ولكل قطةٍ حَشِيَّةٌ تجلس عليها . ولما اشتدَّ عُودِى واستطعت أن أتَذَوَّقَ

الشعر وأفهمَه ، قرأتُ الكثيرَ من شِعْرِها ، وحَفِظْتُ مَرْثِيَتَها الشهيرةَ لابنتها ، وكان إعجابى بنظمها كبيرا .

كان والدى كثيراً ما يأخُذُنا إلى الريف ، فنُمضِى هناك إجازةَ الصيف . وكنت أُحب الحياة فيه ؛ أَقْضِى الوقت مع الفلاحين ، أَحْضُر مجتمعاتهم ، وأستمع إلى أحاديثهم ، وأَطْرَب لأغانيهم ، وأَلعب بالكرة فى بَيادِرِهم . وعرفتُ هناك فيمن عرفتُ شخصيةً طريفة أُعْجِبتُ بها ، هى شخصيّة « الشيخ جمعة » خفير « جرن الأوسية » .

وأذكر أنَّ أولَ عملٍ أدبيٍّ عالجتُه ، هو إنشائى بمعونة شقيقى « محمد » صحيفةً خاصَّة كنا نطبعها على « البالوظة » وننشر فيها أخبار المنزل والأصدقاء . وكان لنا مَسْرَحٌ بَيْتِيٌّ نُقِيمه بين حينٍ وحينٍ فى أحد الأَبْهاء بالمنزل ، لنُمثِّلَ عليه مسرحيّاتٍ ساذَجةً من تأليفنا ، كنا نضعها على غِرار مسرحيّات « سلامه حجازى » . وذَكا ميلى للمطالعة ، فأقبلتُ على الروايات أُشْبِعُ منها رَغْبَتِى ، وكان جُلُّها مترجَماً مما لا قيمة فنية له . وأَهدى إلىَّ والدى مجلَّداً ضخماً من « ألف ليلة » أصدرتْه مكتبة الهلال مهذَّباً ، فى طبعة مصوَّرة أنيقة ؛ فتعلقتُ به ، وطالعتُه بأكمله ، وكنت أجمعُ من

يَرْغَبُ فى الاستماع من أهل المنزل ، وأعيد عليهم تلاوةَ ما قَرَأْت ؛ ولعل السرَّ فى شَغَفى بألف ليلة فى تلك الحِقْبَةِ هو مشابهتها « للحواديت » التى عشنا فى جَوِّها رَدَحاً من أيام الطفولة والصِّبا ، فكأنى أعود بها إلى سذاجتى الأولى ؛ وكل منا يشعر بحنين عظيم إلى ذلك العهد . على أن الذى كان يُعْجِبُنَا من « ألف ليلة » ليس مجرد شبهها « بالحواديت » ، بل اتساع أُفُق الخيال فيها ، وخِلَابَةُ حوادثها ؛ كل ذلك فى جَوّ شَرْقِيّ ساحر ، يَمُتُّ إلى نفوسنا بأوْثَقِ الصِّلات ؛ جَوّ طالما تمنينا أن نعيش فيه ، فنشعر أننا نغامر مع أبطاله ؛ نرتفع مع الرُّخِّ إلى السماء العليا ، ثم نَهبِطُ إلى وادى الثعابين ، فمغارة الموتى ، فمدينة النُّحَاس ؛ ثم نعود إلى الأهل والأحباب تُثْقِلُنا أكداس من الذهب !

و « ألف ليلة » هو أحد كتبٍ قليلة تُكَوِّنُ التراثَ الضئيل لثقافتنا القصصية . وهذا التراثُ هو الذى يساعد القاصّ منا على إنماء موهبة التَّخَيُّل فيه . والخيال هو العامل الأساسىّ فى التأليف القصصىّ ، وبدونه يكون القاصّ عاجزاً عن الخَلْق والابتكار ، فتَخْرج آثاره سطحية لا تزيد قيمتها على تدوين

الحوادث الجارية . والحق أن « ألف ليلة » مفخرة القصة فى الأدب العربىّ ، وإن كان أصله ليس عربيا ، فقد جاءنا من طريق الفرْس ، وهذا يعلِّلُ لنا قوة الخيال فيه ؛ ثم تناولَتْه بعضُ الأقلام فى العصور العربيـة بالزيادة والتغيير . فالعربىّ الأصيل لم يترك لنا تراثاً يُعتَدُّ به فى القصة ، وإن كان قد ضرب بسهم وافر فى فنون الأدب الأخرى ، كالشعر والخطابة والتّرَسُّل ؛ فقد كانت فكرته البدويّة ، وحياتهُ فى بقاع قاحلة متشابهة قَلَّتْ فيها ألوان الطبيعة ، وقناعتهُ بالقليل الضئيل من أسباب العيش — من العوامل التى أبعدَتْه من إذْكاء خياله ، وإطلاقه فى تناول أعماق الحياة وخوافيها

وكان العصر الذى نعيش فيـه قد تسلطَتْ عليه النزعة المحافِظَة ، فـكان الـكاتب يرجع غالباً فى كل ما يكتبُ إلى السَّلَف الصالح ، يستعير صِبْغَتَهم فى الـكتابة ، وأساليبَهم فى التعبير . وكان حديث الخلافة الإسلامية يملأ الرءوس ، فكنا نرضى عن طِيبِ خاطرٍ بتَبَعِيَّتِنا لدار الخلافة ، ولا نفكر فى تأليف وَحْدَةٍ وطنيَّة لنا .

وإذا فكّرنا فى الوطنية لم تكن وطنيتُنا إلا إحياء للإمبراطورية العربية القديمة . فى ذلك الجوِّ عشنا وقْتاً ، لا نهتدى فى طريقنا

بغير هُدَى الماضى ، ولكننا أخذنا نسمع على أثَرِ تتابع البَعثَات إلى ممالك أوربا ، وازدياد أسباب الاتصال بيننا و بين العالم المُتَحَضِّر ؛ نَغْمَةً جديدة كانت تدعو إلى التجديد فى اللغة والأدب والسياسة والدين ؛ ولكنها قُوبِلَتْ من جمهرة المعاصرين بالاستنكار . وكان زعماء هذه النهضة : « سعد زغلول » و « محمد عبده » و « قاسم أمين » ثم « لطفى السيد » وتلاميذه فيما بعد . فقد نبه « سعد » الأذهانَ إلى القوميَّةِ المصرية ، وحَدَّدَها تحديداً أخرجها عن زَخَارِفِ الخلافة التركيَّة ، وأمانى الإمبراطورية العربية . ونَفَى « محمد عبده » عن الدين ما كان عالقاً به من الأوهام ، فأظْهَرَه على فطرته السَّمْحَة . واقتحم « قاسم أمين » ميدان المرأة ، وأخذ يُمَزِّقُ النقاب عن وجهها ، ويُخْرِجُها من قاعات « ألف ليلة » حيث يَعْبَق البَخُور ، إلى مَيْدَانِ النور والحياة والعمل .

ولما تهذَّبَ ذوقى فى المطالعة أقبلتُ بشَغَفٍ على قراءة «المنفلوطىّ» فقد كانت نزعتُه الرومانسيَّة الحُلوة تملك علىّ مشاعرى ، وأسلوبه السلِس يَسْحَرُنى . وكل إنسان فى أَوْجِ شبابه تطغى عليه نزعة الرومانسية والموسيقى ، فيصبح شاعراً ، ولو بغير قافية ؛ وقد يكون أيضاً شاعراً بلا لسان !

ولما كان شقيق الأكبر « إسماعيل » بِحُكْمِ مكانه من الأُسرة قد اضطلع بزعامة المنزل ، وأخذ على عاتِقِه القيامَ بما تَفْرِضُه هذه الزعامة من اتجاه إلى العمليّات ومحافظة على تقاليد الأسرة وما يتبعها من رَسْمِيَّات — وجدتُ الفرصةَ سانِحَةً للتخلّف فى ذلك الميدان ، واستطعتُ أن أتحكَّم فى أوقات فراغى إلى حد كبير ، أُصَرِّفها — وَفْقَ ميولى — بعيداً عن الحياة العمليَّة ومظاهر الرسميات ، فأشبعتُ ميلى إلى المطالعة .

وكان نصيبُ الشعر وافراً فى مطالعاتى هذه ، الشعر بنوعيه : العربى والإفرنجى ، وخاصةً شعر المعاصرين . وكنت أُفَضِّل منه غالباً ما كان خياليًّا مُغْرِقاً فى الخيال . وكانت المدرسةُ الأمريكية التى أنشأها إخواننا اللُّبنانيون والسوريون فى المَهْجَر ، قد بَسَطَتْ نفوذَها على الأدب المصرىّ ، فأخذتُ بها ، وشُغِفْتُ كبير الشَّغَفِ بزعيمها « جبران » ، ذلك الشاعر الرَّمْزِىّ المغرق فى الرمزيّة . وكانت « الأجنحة المتكسِّرة » أولَ كتاب حَظِىَ منِّى بأوفى حبٍّ وتقدير ، فَتَأَثَّرَتْ به أُولَى كتاباتى ، وجلُّها من الشعر المنثور ذى النزعة الرومانسية . وكان لجبران وجماعته مجلة تدعى « الفنون » ، قرأنا فيها حقًّا لوناً جديداً من الأدب ،

الأدب الذى يحاول أن يخرجَ عن نطاق التقليد فى الفكرة والقالَب . هذا الأدب كان يستمد وَحْيَه من الغرب ، وقد استحدث له أسلوباً جديداً خرج فيه عن بعض قواعد اللغـة ، ونَهَج المَنْهَجَ الإفرنجى ، فاستعذَبْناه لطرافته وشذوذه عن المألوف . ولا جدالَ فى أن ذلك الأدب على عِلَّاته ، كان يحوى عُنْصُرَ التجديد ؛ فلا يمكننا إنكار فضله ، فهو دم جديد جَرَى فى عروق أدبِنا المُحَافِظ ، فَنَشِطَ ودبَّتْ فيه حياة جديدة . وكان للقصة نصيبٌ لا يُستهان به فى هذا الأدب « المتأمرك » . والقصة — حتى ذلك العهد — بضاعة تكاد تكون غريبة عنا ، فتأثير هذه المدرسة فى تلك الناحية من أدبنا ظاهر ملموس . وأَخَذَ نُفُوذ هذه المدرسة يتضاءل على مَرِّ الأعوام ؛ إذْ كَثُرَت البعوث المصرية إلى أوربا ، فلما عاد أعضاؤها إلى مصر ، أخذوا يُبَشِّرُونَ بمبادِئَ جديدةٍ فى كل فرع من فروع حياتنا ، ومنها الأدب . فكانت بداية نهضة جديدة ، نهضة لها خطرها . وكنا على أبواب الحرب ، وعاد شقيق « محمد » من أوربا مُحَمَّلًا بشتى الآراء الجريئة . كان يتحدث بها إلىَّ ، فأستقبلها بعاطفَتَيْن لا تخلوان من تفاوت : عاطفة الحذر ، وعاطفة الإعجاب .

هذه الآراء كانت وليدةَ نزعة ثَوْرِيَّة قوامها جحود القديم . ولـكنَّ حِدَّتَها أخذت تَهْدَأُ على توالى الأيام ، ومن ثم اتخذتْ طريقها الطبيعىّ فى التطوّر . والأمر الذى كان يشغل فـكر أخى ، ويرغب فى تحقيقه ، هو إنشاء أدب مصرى مبتكر يستملى وَحْيَه من دَخِيلَةِ نفوسنا ، وصميم بِيئَتِنا .

ويحسنُ هنـا أن أذكرَ حادثاً مُهِمًّا أعتقد أنه كان نقطة تحول فى حياتى الأدبية ، إذْ وَجَّه مَجْرَى هذه الحياة وِجْهَة معيَّنة . أُصبت بمرض « التيفوئيد » — وكنت إذ ذاك فى العشرينَ من عمرى — وكانت وطأةُ المرض شديدة علىّ ، فلزمتُ الفراشَ ثلاثةَ أشهر قضيتُها فى ألوان شتى من التفكير ، وأخلاطٍ من الأحلام ؛ واستطعت أن أهضم الـكثير من الآراء التى تلقيتُها من أخى ، أو استمددتُها مما قرأتُه من الـكتب . فلما أبلَلْتُ من مَرَضى ، وأردتُ استئناف دراستى العالية — وقد كنتُ بدأتُها فعـلا — حال دون ذلك ضعفُ بِنْيَتِى ، فعشْتُ فترة من الزمن متعطِّلا ، وأطلقتُ لنفسى عِنَانَ الحرية — شيئاً ما — فخرجتُ عن الـكثير مما كان يُقَيِّدُنى من تَحَفُّظَاتِ الأسرة . وشَعَرْتُ باشتداد مَيْلِى للأدب ، فرسمتُ له

دراسةً شبهَ مُنَظَّمَة ، وخَصَصْتُ له وقتاً معيَّناً من وقتى ؛ فكأنى قد أردتُ بهذه الخُطَّةِ استكمال النقص الذى لحقنى من انقطاع دراستى العليا . فِمَّا لا ريبَ فيه أن حادثَ المرض كان بدايةَ طور جديد فى حياتى الأدبية ؛ نقلنى من دور التَّرَدُّدِ إلى دور اليقين ، ومن دور الإلمام والهوادة فى التحصيل إلى دور الجدّ فيه والاستيعاب . وما إنْ مضيتُ فى ذلك حتى كان شقيق قد اقتحم المسرح ، إذ كان ميدانَه الأكبر ؛ فألَّف فيه بالعاميّة ، وعالج موضوعات مُسْتَخْلَصةً من حياتنا المصرية فى فنّ جديد ، امتاز بوصف مُبْدَع ، وتحليل دقيق ، وأسلوب جذّاب . ومارس كتابة القصة ، فاستحدث طريقة تكاد تكون غير مألوفة فى أدبنا فى ذلك الوقت . ونظم الشعر فترجم فيه عن إحساسِهِ المُرْهَف ، وألَّف فى النقد المسرحىّ فابتدع لوناً جديداً مَرِحاً فيه هزل وفيه جد . وعلى الجملة كان أدب « محمد تيمور » أدباً مبتكراً مادته الحياة المصرية والنفس المصرية . هذا على حين أن والدى « أحمد تيمور » كان يعمل ويؤلِّف فى ميدان آخر — ميدان اللغة والتاريخ والأدب القديم . لا يبرح خِزَانَتَه إلا لِمَاما . يعيش فى جوّ المعجمات وحوادث

العهد الغابر ، وقد يقضى الساعاتِ الطوال بل الأيامَ فى الكشف عن لفظ أو تحقيق خبر .

فى ذلك الوقت كنت أستنير فى مطالعاتى بهداية شقيق ، فنَصَحَ لى فيما نَصَحَ بأن أُطالع « حديث عيسى بن هشام » للمويلحى ، ورواية « زينب » للدكتور هيكل ، فرأيت فيهما لوناً يختلفُ عن اللون الرمزى والرومانسىّ الذى كنت غارقاً فيه ؛ لوناً واقعيًّا يَهْبِطُ بالقارئ من سماء الخيال العليا — حيث يعيش الناس كالملائكة فوق الضَّباب — إلى الأرض التى نحيا عليها ، حيث نرى الناس بَشراً مثلنا على فطرتهم التى خُلِقوا عليها .

و « حديث عيسى بن هشام » يُعَدُّ فى نظرى المرحلة الثانية للقصة فى الأدب العربى بعد « ألف ليلة » ؛ فقد نحا فيه مؤلفه مَنْحًى عصريًّا ، فخياله واسع ، وسَرْدُهُ مُمْتِع لا تخلو شخصياته من إحكام فى الوضع . وهو وإن كان قد تَقَيَّدَ بعضَ التقيُّد بالمقامات فى الأسلوب والتأليف ، فقد امتاز بأنه أول محاولة ناجحة لتمصير الأدب وصَبْغه باللون المحلّىّ الزاهى مع سُمُوّه عن الواقعيَّة الساذَجة .

أما رواية « زينب » فهى فيما أرى تُعَدُّ أولَ عمل أدبىّ

فى القصة المصرية ، يتضمَّن العناصر الأساسية للقصة الحديثة كما نعرفها اليوم . وامتدح لى شقيق غيرَ مرة « موبَسَّان » الكاتب الأُقصوصىّ الفرنسىّ ، فبدأتُ أُطالعه ؛ وما كدتُ أقرأ له مجموعة حتى فُتِنْت به ، وتابعتُ قراءَتِى إيَّاهُ فى شَغَف عظيم . واتسعتْ مطالعاتى فيما بعد فى القَصَصِ الأوربى وتشعَّبَتْ ، ولكننى حتى اليوم ما زلت محتفظاً لموبسان بالمكان الأول فى نفسى ، فهو عندى زعيم الأقصوصة الأكبر . وفن « موبسان » فى نظرى فن كامل توفَّرَتْ فيه كل العناصر اللازمة لبناء قصة قويّة ، من حيث عَرْضُ الموضوع ومعالجته ، وتحليلُ شخصياته ، وتسلسلُ الحوادث وخواتمُها ؛ كل ذلك فى وضوح واتزان . ولا أذكر أنى قرأت له قطعة لم تَهُزَّنى .

ثم انتقلتُ بعد ذلك إلى القَصَصِ الروسىّ ، وقرأتُ « لتشيخوف » و « تور جنيف » ، ومن ماثلهما ؛ فرأيت تأثير « موبسان » واضحاً فى بعض إنتاجهم . ويمتاز القصص الروسىّ بعنصرى الصدق والبساطة ، فما القصة الروسيّة غير قطعة منتزعة من نفس صاحبها ومن مشاهداته ، يَعْرِضها فى غير كُلْفَة ولا زُخْرُف ، وقد يقرأ الإنسان أقصوصة من هذه

الأقاصيص ، فلا يرى فيها موضوعاً تامًّا له بدايته ونهايته ، بل يرى صفحةً ساذَجة من الحيـاة ، ولـكن تَتَرَاءى له خلفَ هذه السذاجة الظاهرة صفحات من صميم المآسى البشريّة . لذلك نعتقد أن قوة القصة ليست فى حوادثها الثائرة الفاجعة ، ولا فى مُشَوِّقَاتِها المبتذَلَة التى يَتَعمَّد القـاصّ الضعيف أن يَجْتَـلِبَها ليستُرَ ضعفه وراءها ؛ بل إن قوتَها الحقة فى بساطتها وصِدْقِها ، وصَوْغِها فى قالب فَنِّىٍّ رفيع .

وكانت الحربُ قد انتهت ، وبانتهائها ثارتْ فينا نزعةُ القومية وأدركْنا صلاحَ المبادئ التى نادى بها « سعد زغلول » وصحابُه ، واتسع نطاقُ « المصرية » فطغى على كلِّ شىء فى حياتنا ، سواء أكان فى السياسةِ والاقتصاد أم فى الأدبِ والاجتماع .

أما من الناحية السياسية ، فقد أدركْنا كيف أن الدولة العثمانية التى كنا ننظر إليها زعيمة ومنقذة ، قد جعلت تنهار وينكشف لنا ضعفها . فعادت إلينا الثقةُ بنفوسنا ، ورأينا من « مبادئ ولسن » الأربعة عشر ما يحقق لنا حياة مستقلة سعيدة لا تَبَعِيَّةَ فيها ولا خضوع ، فاعتزمنا أن نعملَ لهذا الاستقلال ، معتمدين فى ذلك على أنفسنا وحدَها .

وأما من ناحية الاقتصاد فقد دفعتْنا الحاجةُ إلى سَدِّ الثَّغْرَةِ التى أوْسَعَتْها الحرب فى وارداتنا الأجنبيـــة ؛ فنَشِطت بعض الصناعات الوطنية وازدَهَرَتْ ، وبدأنا نُحِسُّ لذّةَ الفوز فى ذلك المضمار ، فطالبنا بالمَزيد ، وقد تأكَّدَ لنا أن فى مقدورنا السيطرةَ على صناعتنا إذا توافرت لدينا الجهود الصادقة ؛ ومن ثم تأسَّس بنك مصر ، وأخذت شركاته تُولَد ويشتدُّ عودها .

أما من الناحية الاجتماعية ، فقد شاهدنا كيف أن الحرب فى أوربا قد قَلَبَتِ الأوضاع ، وأنشأتْ نُظُماً وأوضاعاً فرضتها فرض المتحكِّم الغَلَّاب . فلَحِقَنا منها الشىء الـكثير ، ورأينا أن الانقلاب الذى كان يُقَدِّرُ له « قاسم أمين » عشراتِ السنين ، يَتِمُّ فى أعوام لا تتجاوز عددَ أصابع اليد .

أما الأدب فقد اصطبغ باللون المحلىّ الصارخ ، حتى أغانينا الشعبية غَلَبَتْ عليها هذه الصَّبْغَة ، ورأينا أنفسنا نَتَّجِه نحو الواقع ، فأصبحنا عمليِّين بعد أن كنا شعراء خياليِّين . وشاع المسرح المحلى وبخاصة الهزلىُّ منه ، وانتشر الاقتباس ، وبدأ الابتكار ، على حينِ تضاءلت الترجمة . فى هذا الجو كتب « محمد تيمور » أقاصيصَه : « ما تراه العيون » وقد نحا فيها نحو المذهب الواقعىّ ،

وصوَّر فيها مناظر مختلفة من بِيئَتِنا المصرية وأشخاصها ، صاغها أقاصيص جَمَعَتْ بين فنّ مبتكر وأسلوب رشيق سَهْل ، فأُعْجِبتُ بها إعجاباً دعانى إلى أن أُؤَلف على غِرَارِها ، فكتبتُ باكورتى فى القصة : « الشيخ جمعة » . وهى قطعة وَصْفِيَّة لخفير من خفراء الضياع ، ثم أرْدَفتُها بأقصوصة تُسَمَّى : « يحفظ بالبوسطة » . وكنت قد أهملتُ الشعر المنثور ، فاندفعتُ أكتبُ مُتَرَسِّمًا فى كتابتى المذهبَ الواقعىّ ، وذلك بتأثير الجوّ الجديد الذى نعيش فيه ، وما كنت أقرؤه من قصص على هذا المذهب ، وكنت لا أَحفِلُ بالأسلوب احتفالى بتصوير الواقع .

وفَجَعَنِى القَدَر وقتئذ فى شقيق « محمد » وهو فى مَيْعَةِ صباه ، وشَرْخِ شبابه ، وتألُّق أمانيه . وشَعَرْتُ بعد موته بانهيار أمله الكبير فى إنشاء أدب مصرىّ جديد ، كثيراً ما كان يحدثنى عنه فى حماس ويقين . ودَهَمَنى اليأس ، ورأيتُ نفسى أضْعف من أن أَخلُفَهُ فيما كان يبَشِّرُ به ، فخَلَدْتُ إلى السكينة وقد توقعتُ الفَشل . . . . وانقضَتِ الأيام ، وبدأتْ عجلة الحياة القاسية تسير فى طريقها ، لا يَعْنِيها من أمور العالم إلا استكمال دورتها ، فأخذتْ الجروحُ تندَمل ، وإن كانت الذكرى باقيةً بقاء الروح فى الجسد .

ورأيتُ نفسي قد نَشِطَتْ للعمل ، واستجمعتُ من ضعفي قوة تَقَدَّمْتُ بها فى ميدان التأليف ، وقد انطلقتُ أَنْفُضُ عنى اليأس ، وأُقْصِي شبح الفشل ، معتمداً على نفسى ، مهتدياً بِهَدْيِ شقيق الراحل . فكنتُ أَعْمَـــل وكأنى مندفع بباعث من « واعيتى الباطنة » إلى استكمال ما كانت تصبو نفس شقيق إليه لو أُتيحَتْ له الحياة . وكنت أُحِسُّ أننى بهذا العمل أُرْضِي رُوحَ شقيق ، وأُقْرِئُها واجب التحية والإجلال .

وما إن أقبل عام ١٩٢٥ ميلادية حتى رأيتُ أنه تَجَمَّعَ عندى مادة من القصص يَصِحُّ إظهارها فى كتاب . فطبعتُ : « الشيخ جمعة وقصص أخرى » ثم أردَفْتُه بغيره .

ولما هدأتْ نزعةُ المصريةِ الحادَّةِ بألوانها المحلّية الصارخة ، واستقرَّتِ الأمور فى نِصَابِها الطبيعيّ ؛ تطورتْ نظرتى إلى الأدب ، فكانت فى طورها الجديد أوسعَ وأعمق .

وسافرتُ فى تلك الفترة إلى أوربا ، ومكثتُ بها حيناً يزيد على العامَيْن قضيتُ معظمَه فى سويسرا ؛ فتفرغتُ للقراءة ، واتصلتُ بالأدب الأوربىّ الحديث أقربَ اتصال . وطالعَتْنى أثناء إقامتى هناك مَرْئِيَّاتٌ ومناظر هزَّتْ نفسى ، وتغلغلَتْ فى

صميم قلبي . كما أن خِبْرَتِي بالحياة ، ومعرفتي لها قد اتسعت وتَنَوَّعَتْ ، فكان لهذه الحياة الجديدة التي عشتها هناك أثر لا يُنْكَر في تَطَوُّرِ تفكيري ، ورأيتُ على ضوء مطالعاتي الجديدة وفَهْمي لنظريات الأدب العالي أن اللونَ المحليّ ليس كلَّ شيء بل هو بعض الشيء ؛ وما الأدبُ الكبير إلا أن يُوَلِّيَ الإنسان وَجْهَه شَطْرَ النفس البشريَّة . فولتُ اتجاهي نحو هذه الوِجْهَة ، محاولاً التقدمَ فيها ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا . وإني الآن أعتقد أن الأديبَ يجب ألا يُقَيِّدَ نفسه في التأليف بمذهب يَتَمَذْهَبُ به ؛ فالأدبُ مَيْدان فسيح ، على الكاتب أن يَمْرَحَ فيه طليقاً . فليُرْسِلْ روحه على سجيَّتِها . فما المذاهب الأدبية إلا من صُنْعِ النُّقَّاد لا من صُنْع الأدباء ؛ وضعوها ليُنَظِّمُوا بها فَهْم ويُخْضِعُوه لقوانين مَنْطِقيَّة .

ولا أستطيع أن أختمَ هذه العُجَالَةَ قبل أن أتحدث عن أمرٍ أضَعُه في مقدمة الأمور التي أَثَّرَتْ وما زالتْ تُؤَثِّرُ في مَجْرَى حياتي ، أعني به صِحَّتي . فقد تأَلَّبَتْ عليّ الأمراض منذُ الطفولة ؛ وأذكر بالخيرِ طبيبي الأول ، فقد كان يجمعُ بين الطب والطِّيبَة ، أي بين العلم والصداقة ، فلم يَكُنْ يُداوِي الجسم

وحدَه ، بل يداوِى معه النفس . كان طبيبُ الطفولة هذا رجلاً نحيفاً ذا طربوش أفطس ووجه أسمر مهزول . ولا أدرى لماذا يَخْطُر ببالى ، كلما شاهدتُ صورة « دون كيشوت » . هذا الطبيب أو بالأحرى هذا الصديق ، كان يحضُر لزيارتنا ويمكثُ معنا الساعات الطوالَ يُجرّعُنا الدواء ويَتجرّعُه معنا ، وهو يرْوِى لنا القصص والنوادر .

منذ الصغر والعللُ تتردّد علىّ حتى أَلِفتُها الآن ، وأصبحتْ غيرَ غريبة عنى . منذ سنين طويلة وأنا فى رِقابةِ الطبّ فى مأكلى ومشربى ، وفى نومى ويقظتى . سنَّ لى هذا الجبارُ قوانين لا أستطيع الخروج عليها ، فأنا أعيش من مَرَضى فى قفَص ، أنظرُ إلى الأصحاء من الناس يستمتعون بكامل حريتهم ، فأَغْبِطُهم وتنالُنى حسرةٌ أليمة .

وهكذا كنتُ أحِسُّ فى أعماق نفسى بنقْصٍ يحْجُزُنى عن الاستمتاع بما يَنْعَمُ به غيرى ، هذا النقص دفعنى وما زال يدفَعنى إلى أن أستكمل فى الخيال ما عجزتُ عن إتيانه فى الواقع . ومع ضعف صحتى ، وما نالنى من مرض، أجدُ نفسى قد تخَطّيْتُ الأربعين وما زلتُ حيًّا أُرْزَق ، فأعْجَبُ لذلك وأقول : « لِسّه لك عُمر » !

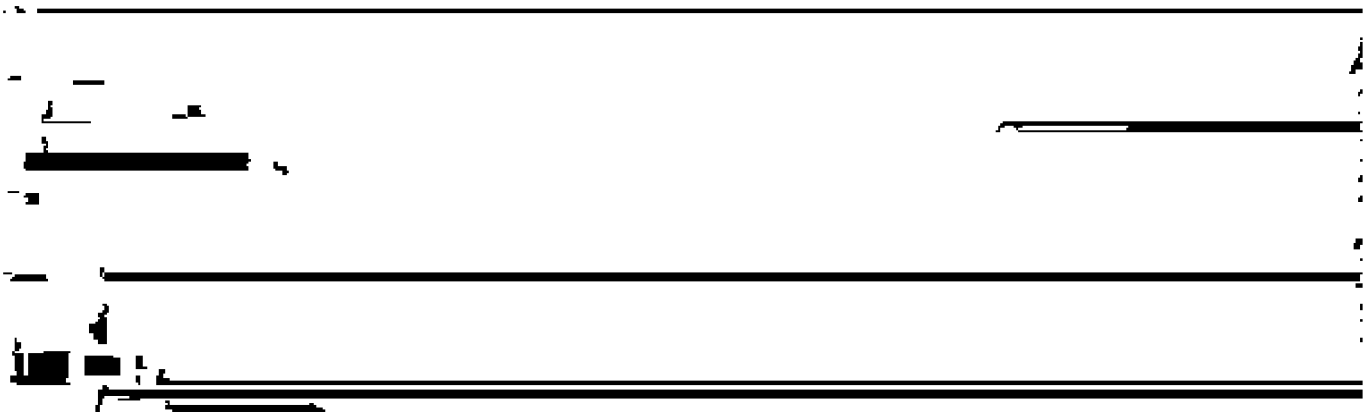

فرعون صغير

كنتُ على موعدٍ مع « الخواجا أرداش » بفندق « شپرد » ، لإنجاز مُهِمَّةٍ كلّفنى إياها والدى . وكان والدى من هُواة الآثار يجمعُ منها بكلّ طريف نادر ، فكثيراً ما كلّفنى أمثالَ هذه المهمة عند المشهورين من تجار العادِيّات ، ولم يكن يفوتنى على حداثةِ سِنِّى أن أقومَ بعملى فى نجاح .

دخلتُ الفندق ، وقصدتُ من فورى البَهْوَ الفِرْعَوْنِيَّ ، فوجدتُ « الخواجا أرداش » منتحياً جانباً منه يتحدَّث إلى سيدة ، فتقدمتُ نحوه وصافحتُه ، فقال على الأثَر :

من حُسْنِ الاتفاق أن تكون « مسز كلارك » معى فى هذه الساعة . . !

وأشار إلى السَّيِّدَة بابتسام ، ثم تابَعَ قَوْلَه :

إنها من هُوَاةِ الآثار ، وإنى أُقَدِّمها لتكونَ حَكَماً فى تقدير التُّحْفة التى يريد والدُك شراءها .

فلم يُعْجِبْنى كلامه ، إذ كان فيه معنى التوريط . على أنى نظرتُ إلى السيدة مبتسماً فى تَلَطُّف . وقدَّم الرجل كلاًّ منا للآخَر ،

ثم جلسنا إلى إحدى الموائد الخالية ، وبدأنا نُعالج الحديثَ فى شأن هذه التُّحفة .

وكانت « مسز كلارك » سيدةً فى أوْج بهائها توشِكُ أن تَخْتِمَ العِقْدَ الثالثَ من عمرها ، حُلوةَ القَسَمات ، ذاتَ جمال أمريكىّ من الطراز الرفيع . لها عينان زرقاوان متناهيان فى الصفاء ، وبَشَرةٌ بيضاء تخالطها سُمرة خفيفة تزيدها جاذبيةً . عذبةَ الحديث ، فى خيالها جُموحٌ وغرابة .

لم أمكثْ طويلاً معها ، ولكن الوقتَ الذى أمْضَيْتُه بجانبها كان على قِصَرِه مُمْتِعاً . وأنجزْتُ مهمتى مع « الخواجا أرداش » مرتضياً حكمَ « مسز كلارك » . وعند ما أردتُ الانصراف ، ومددتُ يدى مودِّعاً ، قالت لى فى ابتسامة مُشْرِقَة :

هل لك فى تناوُلِ الشاى معى غداً ؟

فأجبتُ بلا تَرَدُّد :

بكل سرور ! !

— إذن سأنتظرُكَ فى فندق « مينا هاوس » حيثُ أقيم .

وأيقنتُ أنها ستدعو معى « الخواجا أرداش » ، ولكنى دَهِشتُ إذْ لم تفعل ، واقتصرتْ على منحِهِ يدها ليقبِّلَها ، ثم شيعتْه بابتسامةٍ ظريفة .

وخرجتُ من الفندق وأنا أُفكِّرُ فى هذه الدعوة . لقد كانتِ الأولى من نوعها ، فلم يسبقْ أن التقيتُ منفرداً بسيدة فى مثل هذه الدعوة الخاصَّة . ولكننى كنتُ فى طَوِيَّة نفسى مغتبطاً . وقد سهّلَ علىَّ الأمرَ غيابُ والدى عن العاصمة فى ذلك الحين .

وفى اليوم التالى ذهبتُ فى الموعد المحـدود إلى فندق « مينا هاوس » القائم بجوار الأهرام ، وأعطيتُ بطاقتى للبوَّاب ، فسُرْعَانَ ما عاد إلىّ يخبرنى بأن السيدة تنتظرنى فى حُجْرَتِها . وأمر واحداً من غِلمانِ الفندق أن يصحَبَنى إليها .

أقبلتُ عليها ، فوجدتها جالسةً على مقعد طويل ، وبيدها كتابٌ ذو جِلْدة ثمينة مبتكرة تنظر فيه . فما إن رأتْنى حتى قامتْ إلىّ ، واستقبلتْنِى استقبال صديق تألَفُه من قديم . ووقفتُ مأخوذاً أتلفَّتُ حولى أُدَقِّقُ النظر فى شكل هذه الحجرة العجيبة ومحتوياتها . كانت متسعةً عاليةَ السقف ، فخمةَ العُمُد ، يسودها جوٌّ أشبه بظلمةِ الغَسَق يغلب عليه لون البَنَفْسَج . وكان كل شىء فيها على النَّمَطِ الفِرْعَوْنِىّ ، مصنوعاً فى دقة وطرافة وسلامة ذوق .

وهمستُ قائلاً :

أفى هيكل نحن ؟

وسمعتُها تُجيبُنى :

ولم لا ؟ !

ومشتْ بى إلى النافذة حيث الستائر الحريرية ذات اللون البَنَفْسَجِىّ مُسْدَلَة ، فلمحتُ خلفَها شَبَح الأهرام جاثماً فى الصحراء فى وضع لم أره عليه من قبل . كان ينبعث منه جمالُ الفَتْوَةِ والصِّبا ، وجلالُ القوة والعظمة . فرأيتنى أمام مصرَ فى عزِّها القديم الخالد !

وعُدْتُ ببصرى أُسَرِّحه فيما حولى من أثاث ورياش ، وقلتُ :

أفى الفندق حُجَر أخرى على غِرارِ هذه الحجرة ؟

— كلا . أنا التى أثَّثْتُها وزيَّنْتها بنفسى .

وكانت « مسز كلارك » ترتدى ثوباً فرعَوْنيًّا غايةً فى البساطة والذوق الجميل ، فقلت لها :

أتحبِّينَ مصر الفرعونية كلَّ هذا الحب ؟

— إنى أعبدها !

ووقفتُ وإياها برهة بجوار النافذة نرقُب الهرم الأكبر ،

يتخاذل رويداً على سطحه نور الشمس الفاتر . ثم سرنا صامتَيْن إلى مائدة الشاى ، وكانت الأكوابُ والأباريقُ والأوانى من الفَخَّار ، مصنوعة على الطراز المصرى القديم ، منقوشاً عليها بعض رسوم ساذَجة من رسوم ذلك العهد . وكانت « مسز كلارك » تَتَفَحَّصُنى بنظراتها العميقة تفحُّصاً أقلقنى . ولم تلبث أن لاحظتْ ما بدا علىّ ، فابتسمتْ ولاطفتْ يدى ، وقالتْ :

إن هناك شبهاً قوياً بينك وبين « توت عنخ آمون » .

فحملقتُ فيها مدهوشاً ، وأتمتْ هى قولها :

كأنكما توءمان ، انظر . . .

وتناولَتِ الكتابَ ذا الجلدة الثمينة وفتحَتْهُ ، ثم أشارتْ إلى صورة مُلوّنةٍ للملك الشابّ . فجعلتُ أُنعِم فيها النظر . ولأول مرة فى حياتى تنبهتُ إلى هذه الحقيقة الغريبة ، وكنتُ قد رأيتُ غير مرةٍ تلك الصورة ، فلم يجتذبْ ملاحظتى منها شىء . وسمعتُها تقول :

لا يعوزك غير التاج والصولجان . . . . !

فبدرتْ منى ضِحْكةٌ خاطفة ، أما هى فتابعتْ كلامها ، وعيونها تلمع اهتماماً :

وسنكما متماثلتان ، ألستَ فى السابعةَ عشرة ؟

— نعم .

. . . . وانثنينا نشرب الشاى ، وأخذت « مسز كلارك » تتكلم بصوتها المُتنغِّم المُشْبَع بالأحلام ، قالت :

إنى أحب بلادك حبَّ عبادة ، وكنت أحلُم بزيارتها ولمّا أزلْ طفلة . . . وتاريخُها العظيم ! لقد استوعبتُه دراسةً وتمحيصا . وكنت كلما تعمَّقْتُ فيه تكشفَتْ لى كنوز جديدة ، وأى كنوز ؟ ! إنها عوالم بأسرها ، يخطئ من يقول إنها اندثرت ولم يبق منها شىء . إن الماضى الرائع يملأ جو هذا البلد ، يملؤه كله ، وإنى لأشعر به يغمرنى ، يتصل بروحى ، ويمتزج بدمى .

وصمتتْ برهة ، ثم قالت وهى تُحدِّق فى عيونى تحديقاً غريباً :

لك عيون بديعة ! كلون ماء النيل عند الفيضان ، تحمل فى أعماقها أسرار الماضى السحيق .

وناولتْنى قدَحاً من الشاى . فأخذْتُه ويدى ترتجف ، وبدأتْ خَفَقات قلبى تُزْعجنى ، وأردتُ أن أُحوِّلَ مجرى الحديث ، فقلتُ :

أهذه أولُ مرة تزورين فيها مصر ؟

— نعم هى أول زيارة ، وستكون آخر زيارة أيضاً !

فقلتُ مدهوشاً :

لِمَ ، وقد خَبَّرْتِنى اللحظةَ أنكِ مشغوفةٌ بها ؟

— من أجل هذا أريد ألا أحضرها مرة أخرى !

وصمتتْ برهة وهى تحدِّق فى عمود ضخم يحمل صورة كبيرة لملك فرعونىّ ، بيده حربة يَهْجُم بها على حيوان مفترس ، ثم قالت :

إننى أستعذب الألم فى سبيل الحب ، ففى ذلك العذاب خلود للحب وتقديس ؛ أما الاستمتاع به إلى النهاية فقضاء عليه ، إذ يُحيله إلى شىء تافه مبتذَل كريه .

وكنت أُصغى لحديثها كلَّ الإصغاء ، وقدمتْ لى صَحْفَةَ الفطائر ، فأخذتُ منها واحدة ، واستأنفتْ حديثَها قائلة :

اسمع . لقد أحببتُ عند ما كنتُ فى سنّك شابًّا جميلاً ، بارعَ الجمال . وأحبنى هو كذلك ، وتزوجنا . وعشنا برهة من الزمن ونحن نستمتع بلذة الحبّ غافلَيْن عن كل شىء حولنا . لقد كان حباً جنونيًّا لا أظن أحداً غيرنا قد عرفه واستمتع به على هذا النحو ، ولم يكن يَسْنح لخاطرى أن مثل هذا الحُبّ يعتوره يوما ما أقل نقص أو تغيير . . . ولكن . . .

— ماذا ؟

— . . . لقد اعتصرْنا البرتقالة ، وجعلنا نرتوى من عصيرها ، فلما لم يبق أمامنا غير القشرة المرّة ، أكلنا منها حتى أصابنا الغَثَيان . . . . !

وسارتْ بى فى الحجرة ويدها فى يدى ، وجعلتْ تطوف ، هَيِّنَةَ الخُطا ، وتقف مرةً بعد مرةٍ أمام النقوش والصور تسرِّد لى حديثها فى صوت خافت عَذْب ؛ فكأنما كانت تُنشدنى أرقّ الأشعار . . . . . وقلتُ كالهامس :

وَدِدْتُ لو عشتُ فى ذلك العهد الغابر ، أستمتع بهـــذا الماضى الرائع !

فنظرتْ إلىّ مُسبِلةً جفنيها شيئاً ، وقالت :

ليس هناك ما يسمَّى الماضى أو المستقبل . الزمن طوعُ يميننا ، وفى طوقنا أن نعيش فى « العهد » الذى نريد .

ثم أدنتْ وجهها من وجهى ، وطبعت على فمى قبلةً شَيِّقَة ، ثم استأنفتْ سَيْرَها وهى ممسكةٌ بيدى ، وعادتْ تشرح لى معانىَ الرسوم والنقوش !

تمتْ هذه القبلةُ على أهونِ حال ، وسلكتْ طريقاً طبيعيًّا لم يُثِرْ أيةَ دهشة . فما غَيَّرتْ شيئاً من بَرْنَامَج طوافنا فى هذا المعبد المقدّس ، بل لقد عَدَدْناها جزءاً من هذا البَرْنَامَج .

وبعد أن أمْتَعْنَا النظر بكل شيء ، مضينا إلى المَتَّكإ الوثير ، فجلسنا صامتَيْن . وأسندتُ رأسى إلى ظهر المتكإ ، وتنازعَتْنى تأمُّلاتى . كل شيء حولى قد تبدَّل . لقد انشقَّت الرمال فغاص فى جوفها فندق « مينا هاوس » وحَمَلَنا « أبو الهول » على ظهره ، وانطلق بنا يعدو طاوياً فيافِيَ الزمن طيًّا ، عائداً إلى مصر الفِرعَوْنية . . . . . رأيت المعابد قائمة تَشْمَخُ بهاماتها ؛ والناس خُشَّع فى أبهائها ، وأناشيد الكهنة تمتزج بالبَخُور ، فإذا بها نَغَمَاتٌ عِطْرِيّة ساحرة . . .

وامتدتْ يدى إلى يدها فى سكون ، وأحاط كلٌّ منا رفيقَه بذراعه ، ثم تقارب رأسانا ، والتقينا فى قُبْلَةٍ عميقة ، وعناقٍ طويل . . . . !

. . . . واستيقظتُ من هذا الحُلْم الرائع ، وقد تغلغل سحر هذه المرأة فى سُوَيْدَاء قلبى ، واستبدَّ بمشاعرى ، حتى لا أملك أن ألفِتَ بصرى عنها .

وكانت الحجرةُ مظلمة لا يُنيرها إلَّا بَصيصٌ شَحِيحٌ ينفُذ إليها مُخْتَرِقاً الستائر البَنَفْسَجية فى مَشَقَّة . ودقت الساعة ، فتمتمتُ :

منتصف الليل !

وقامت « مسز كلارك » وقالت :

هَلْ لك فى نزهة لَيْلِيَّة ؟

فأجبتُ على الفَوْر فى غير تفكير :

هذا غاية ما أرجوه !

ونزَلنا إلى ساحة الفندق ، والسكونُ يَغْشَى المكان ، والخَدَم كلّهم نيام ، أو على أُهْبَة النَّوم . وقصدتْ « مسز كلارك » حارسَ الليل ، وكان جالساً بجوار الباب يَتَرَنَّح رأسُه تَرَنُّحَ الثَّمِل ، فوَكلتْ إليه تدبير شىء ، ونَقَدتْهُ عطاءً وَفْرًا . فخرج الرجل لوقتِه نشيطاً ليقوم بما وُكِلَ إليه . ولم أشأْ أن أسأل « مسز كلارك » فى تفاصيل هذه النزهة ، لأنى لم أكن أفكر فى هذا الوقت إلا فى شىء واحـــد : أن أكون معها ، معها وحدها . . . أما ما دون ذلك فلا يقع منى ببال ! . . .

وبعد قليل ظهر شَبَح الحارس ، وخلفَه جملٌ يتهادى فى مِشْيَتِهِ . وسمعتُ « مسز كلارك » تهمِسُ فى أذنى همْسَ النَّغْمةِ الوديعة ، قائلةً :

ستكون نزهتُنا فى ذلك المحيطِ الرمليّ العظيم ، على ظهر هذه السفينة الطريفة . . . .

فأخذتُ يدها فى يدى ، ولاطفتُها . . . .

. . . . وركبْنَا الجمل ، وسرنا به فى الطريق المُفْضى إلى الأهرام ، فصعِدَ بنا فى ذلك المُرْتَقَى العَسِر ، ونحن على ظهره نَتأَرْجح فى هَوَادَة على إيقَاعٍ مُتَّزِن . وكانت « مسز كلارك » آخذةً بالزِّمام وأنا خلفها آخِذٌ بخَصْرِها اللَّيِّنِ الأَمْلَسِ ، أستقبل شَعرَها الثائر لا يفتأ يُعَابِثُ وجهى فى إلحاح . وكان الظلام يحيط بنا إحاطةً شديدة كأنه يحاصرنا . ولكننا كنا نشقهُ شقًّا ، فيتألّب علينا عَوْداً على بَدْء ، فندفعه ، فيلاحقنا . . . . ومررنا بأبى الهول ، فإذا به قطعة قُدَّتْ من الليل ، يبسط لنا ذراعَيْه الضَّخْمَتَيْن ، كأنه يُحَيِّينا و يرحّب بنا . . . . كان الظلام مُكَدَّساً بعضه على بعض ، وأشباحه المرهوبة تتخايل أمامنا كلَّ لحظة . بيد أنه لم يكن من شىء فى العالم بقادر أن يثير فينا الاضطراب والوجل . كانت الطُمأْنينةُ تملأُ حولنا الوجود كلَّه ، نُحِسُّها شائعةً فى رُوحَيْنا !

وهَبَطْنَا الوادى ، وبدأنا نسير فى سَهْل صحراوىّ منبسط ، لا يعترضه إلا بعض من النخيل ، وقليل من كُثْبَان الرمال . . . . وسرنا . . . ثم سرنا ، و « مسز كلارك » مستغرقةٌ فى صمتها .

ثم رأيتها تَقِفُ الجملَ ، وتدور بعَينيْها طويلاً حولها ، رافعةً رأسها تحدّقُ بنظرها فى قبّـةِ السماء . والتفتتْ إلىّ ، وهمستْ فى أذنى :

هذا الظلامُ البديعُ يكشف لنا من محاسن الطبيعة ما يَعْجزُ النورُ عن إظهاره . تأملْ حولك ، ثم أصْغِ إلى هذا الصمت الرائع . إن الإنسانية الصاخبة الطائشة تنام الآن على صدر ذلك الليل ، كما ينام الطفل الساذَج على صدر أمه . . . . ألا تُحِسُّ فى ذلك الظلام العظيمِ روحَ الامومة العَطُوف . . ! ؟

وسرنا أيضاً . . . .

وبعد حين أخذتْ تباشير الفجر تلوح فى الأُفُق البعيد ، كأنها عيون الكون تستيقظ . وشاهدنا هرم « سَقّارة » يتوضّحُ أمامنا ، فكأنه قِطَعٌ مشعَّثة أخذت تتجمّع . وكلما تجلّى نورُ الفجر خلفَ ذلك الهرم ، تكاملَ شكلُه العتيق جليًّا ، يستقبلنا بابتسامته المُهدَّمَة المكدودة ، التى تحمل بين ثناياها أثقالَ السنين .

. . . . . وما إن دخلنا مِنْطَقَـةَ الهرم ، حتى كانت الشمس تملأُ الكونَ بأسره ، وتَجلِدُ بأشعتها القاسية وَجْهَينا . . . ومررنا على بَدَوِىّ من الأدِلّاء ، واشتبكتْ معه « مسز كلارك » فى

حديث . ثم أخذ الرجل بزمام الجمل ، وسار بنا مخترقاً طريقاً غير مستوٍ ، حتى بلغ بنا معبداً يكاد يكون مطموراً فى الرمال . وقال لـ « مسز كلارك » :

هنا تجدين بُغْيَتَكِ !

فنزلتْ عَنِ الجمل ، ونزلتُ على أَثَرِها ، وراحت تفاوض حارسَ المعبد بضع دقائق ، فأَذِنَ لنا فى الدخول . وسمعتُه يقول لـ « مسز كلارك » :

تستطيعين أن تَقْضِى من الوقت ما تشائين ، دون أن يُقْلِقَكِ إنسان . إن المعبدَ مهجور ، ولم يأخذوا بعدُ فى إعداده للزُّوَّار !

ودخلنا وحدَنا ، وأَغلقتْ « مسز كلارك » البابَ خلفنا . وكان المكان مظلماً رَطْباً ترتاح إليه النفس ، إذْ ينبعثُ منه عِطْرٌ غريب هو رائحةُ العصور الخالية . مشيْنا فى سِرْدَابٍ حَجَرِىّ ينتهى بِبَهْوٍ صغير ، يتَلَصَّصُ النور إليه من شُقُوقٍ فى سَقْفِهِ . ورأيت « مسز كلارك » تَتَمَطَّى فى رشاقةٍ وتَلَيُّنٍ ، كأنها تؤدى بعض التمرينات الأُسُوجِيَّة . ونبستْ قائلةً فى نُعُومَةِ صوت :

ما أطيبَ النومَ فى هذا المكان . . . !

ثم أشارتْ إلى كُومَةٍ من الهشيم فى ركن من أركان البَهْو ، وقالت :

حَسْبُنا هـــذا فراشاً !

وذهبتُ حيث أشارتْ ، وسَوَّيْتُ الهشيم على الأرض . . . واسترسَلْنَا فى نوم عميق .

* * *

عدتُ إلى منزلى فى مَساءِ ذلك اليوم ، وأنا لا أكاد أعِى من أمر نفسى شيئاً . أين أنا الآن ؟ وأين كنتُ منذ برهة ؟ وهل الزمن الذى أعيش فيه هو القرن العشرون حقًّا ؟ أم أنا هائم فى أطواء المـاضى ، وما أراه حولى ليس إلا خَيالات لا تلبثُ أن تزول ؟ ومن تكون هذه المرأة ، هذه الكائنةُ غيرُ الآدميّة ؟ أهى التى يسمونها « أوزيريس » ربةَ الأرباب ، تلك الجَذْوَة الخالدة التى تسيطر على ما فى الوجود من أحياء ومَوْتَى ؟

وشعَرتُ بالرَّعْشَة تسرى فى جسدى ، وبالحُمّى تستيقظ متأهِّبَةً لِصرَاعٍ عنيف . فتهالكتُ على الفراش ، وقـد بدأتُ أفقِدُ شُعُورى ! . . .

٭
٭ ٭

وعلمتُ حين عاودني وَعْيِي أنني قضيتُ فى منزِلى يومَيْن كاملَيْن ، أهْذِى تحتَ وَطْأَةِ الْحُمَّى . فقمتُ أستجمعُ نَفْسِى ، وتركتُ الحجرةَ مُسْرِعاً إلى « مينا هاوس » .

ووصلتُ إلى الفندق ، وسألت عن « مسز كلارك » فأخبرونى بأنها غادَرَتِ المكان على أثَرِ عودتِها من « سقّارة » ، وبارحَتِ القُطْرَ فى اليومِ التالى . . . . !

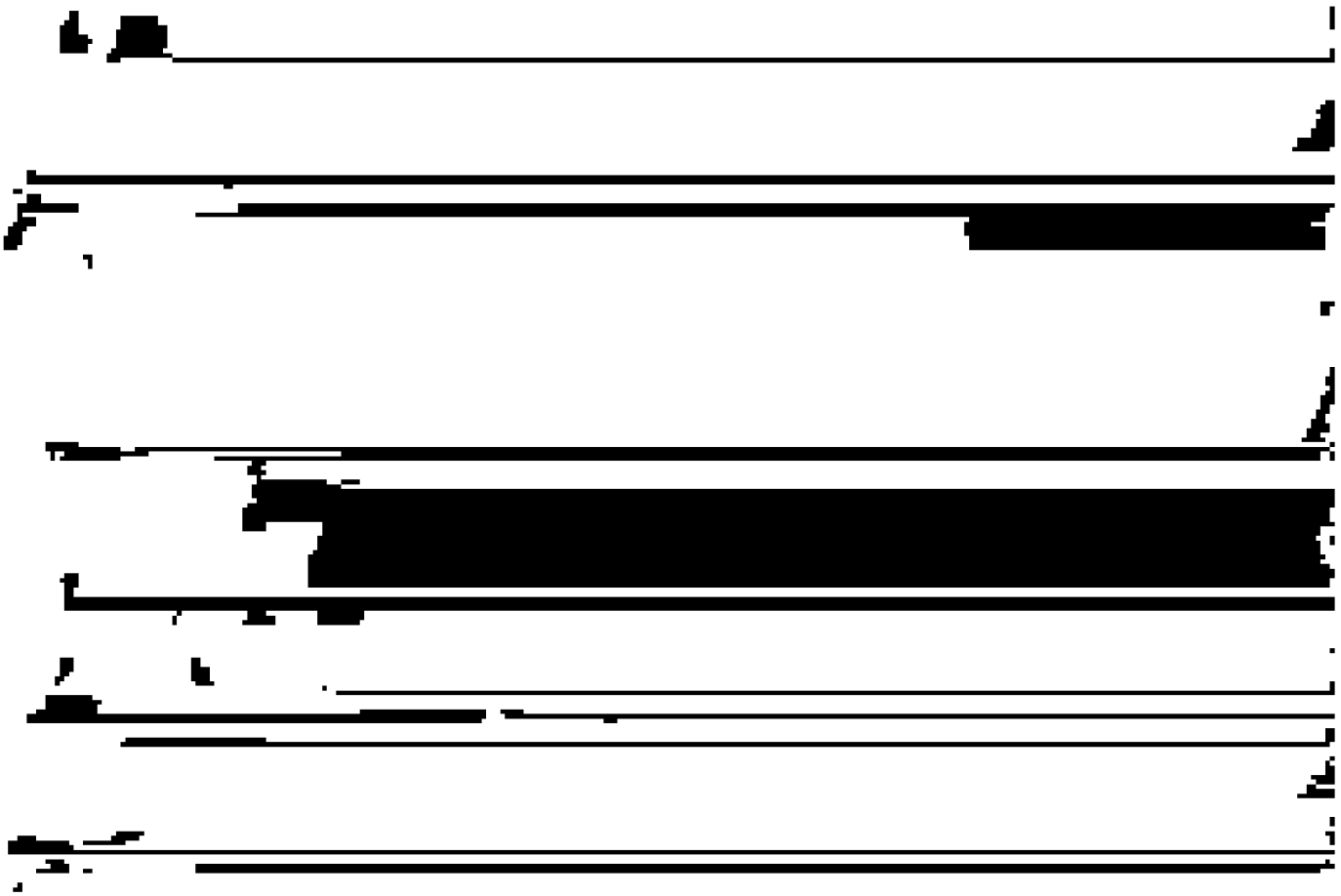

رأيتُ « رُشْدِيَّة يُسْرِى » أولَ مرة عند ما ذهبتُ لمقابلة « السِّتّ ريحانة » فى شأن من شؤون وقف « يَسِ باشا » الذى تستحق فيه .

رأيتها تحمل إلىّ القهوة فى حُجرة الاستقبال ، فاجتذبتْ نظرى على الفور برَوْعَة حسنها وتألُّق شبابها ، وما اتصفتْ به من كمال وأدب . فسألتُ « السِّتّ ريحانة » عنها ، فأخبرتْنى بأنها فتاةٌ يتيمة من أسرة كريمة ، أفقدها القدَرُ ثروتَها ، فتبنَّتْها وخَصَّتها بموفور حنانها وعطفها .

وكنتُ قد أشرفتُ على الخمسين ، ولكنى صحيحُ البنية ، وافرُ الثروة ، حسَنُ المكانة . ولم أكن قد تزوجتُ بعدُ .

واختلفتُ إلى منزل « السِّتّ ريحانة » وتكاثَرَتْ مقابلاتى لـ « رشدية » ، فقد كانتْ تقدِّمُ لى القهوة التى تقوم دائماً بعملها . فشعَرتُ نحوها بأُلْفَةٍ تزايدت على توالى الأيام . وأعجبنى ما تمتاز به من صفات يصعُب على المرء أن يجدَها مجتمعة فى شخص

واحد . لقد كانت حسناء ، جمع جسمُها بين رشاقة النحافة وجمال الامتلاء . لونها يماثل لونَ القمح إذا تعرضتْ حباتُه قليلاً للشمس ، وعلى خديها حمرةٌ طبيعية خفيفة كحمرة الصَّهْبَاء الصافية . أما لون عينيها فلونُ العسل الأصيل الغَنِيّ بسُكَّره وشَمْعه . وكانتْ هذه الفتنةُ تتراءى وكأنها مغطاة بنقابٍ من الحرير الأسوَد ، نقابٍ يختلط فيه الحياء بشيء من الحزن والاستسلام . ولكنَّ هذا النقابَ الرقيق لم يكن ليقلِّلَ من فتنتها ، بل إنه لَيزيدها ويُذْكِيها .

كانت صَمُوتاً ، تجلس بعيدةً عني . وكثيراً ما استعاضتْ عن الإجابة بابتسامة خفيفة تَلمَعُ على شفتَيْها . وتبدُر منها بعضُ إشارات أو كلمات تدل على طِيبَةٍ عريقة ، هي أقربُ إلى سَذَاجة الأطفال .

واعتزمتُ أمراً في شأنها ، ولكني تهيَّبْتُ الإقدامَ عليه . ولا أدري لماذا تهيبتُ ؟ لقد كان الطريق ممهداً خالياً من العراقيل . ولكنْ مَرْأَى هذه الفتاة وهي تتقدَّم نحوي بالقهوة ، في ملابسها المحتشِمة ، وَوَجهها الوديع بحُزْنه واستسلامه ؛ كان يُثير فيَّ شيئاً من السُّخْطِ على نفسي .

وحدث مرةً أن طرقتُ الموضوع بغتةً ، وبلا سابق إنذار أمام « الست ريحانة » فأظهرتُ رغبتى فى الاقتران بـ « رشدية » فرحبتْ بهذه الرغبة ترحيباً يفوقُ الوصف . وفى اليوم التالى عند ما ذهبتُ إليها دخلتْ ومعها « رُشْدِيَّة » ، وسمعتُها تقولُ لها :

تقدَّمى وسَلِّمى على خِطِّيبِكِ العزيز .

فتقدمتْ نحوى « رُشْدِيَّة » خجِلةَ الخُطا . ولما مددتُ لها يدى ، انحنتْ عليها لتقبلَها فى حركة طبيعية صادقة ، ليس فيها غلوٌّ ولا تكلُّف ؛ فجذبتُ يدى ، وأدنيتُ رأسها منى ، وقبلتُها فى جَبهتها قبلةً ضَمَّنْتُها حبى وإخلاصى وشكرى .

... طرأ على « رشديَّة » تغيّر يذكر بعد الزواج ، نشأ من توثُّق الأُلفة بينى وبينها . ولكنها ظلت وفيها أثر من صمتها القديم ، تميل فى بعض الأحيان إلى العُزلةِ والخُلوِّ إلى نفسها . وأظهرتْ كفايتَها فى إدارة المنزل . وكانت دائما تبتغى مرضاتى ، وتتوخّى سبيل محبتى .

ولقد كان يُقلقنى منها ذلك الطابَع الذى لا يخلو من حزن واستسلام ، ذلك الذى يحمل فى تضاعيفه الغموضَ والخفاء ! .

وقد ينقلب ذلك الطابَع الحزين المستسلم إلى نوع من التمرد الصامت ، فتغدو أمامى باردة صُلبة كقطعة من الرُّخام ، فأشعر بألم شديد ، وتُهاجمنى الهواجس من كلّ صوب .

ومرة وجدتُها على تلك الحال ، فقلتُ لها فى شىء من الجفاء :

يلوح لى أنك بدأتِ تتأسّفين !

— على أى شىء ؟

— على زواجكِ بشيخٍ على أبواب الخمسين !

— أؤكد ....

— لا تؤكّدى شيئاً .... لقد بدأت أفهم عظيمَ التفدية التى بَذَلْتِها فى سبيلى ...

فنظرتْ إلىّ بعينين يتخايل فيهما الدمع ، وتلمع فيهما الحيرة ، ثم اقتربتْ منى ، وألقتْ رأسها فى أحضانى ، وتشبّثتْ بصدرى تشبُّثَ الطفل الخائف ، يحاول أن يجد فى أحضان أمه مأمناً وملاذاً .

وقلتُ لها :

أفضِى إلىّ بمكنونِ صدركِ يا رشديّة .... تكلمى . ألستُ زوجَكِ ؟ ألست بمثابة أبيك ؟

فازدادت تشبثًا بصدرى ، وهى تَشرَقُ بالدمع ، وتمتمتْ :

لا شيء .... لا شيء .... !

ثم مَسحتْ عينيها مُسرِعة ، وأخذت تبتسم وهى تقول :

يسوءنى أن أكون قد عكَّرتُ صفوَكَ . أتحبُّ أن أُعدّ لك كُوباً من شراب الليمون .... ؟

فرنوتُ إليها فى حنان وتعجّب ، ثم أخذتُ يدها فى يدىَّ ، وقلتُ لها :

أتحبينَنى يا رشدية ؟

فرفعتْ رأسها إلىّ ، وقبلتْ جبهتى قبلةً هادئة ساذَجة .

كان هذا الخفاء هو كل ما يكدِّر صفاءَ حياتى مع « رشدية » فأستسلم لأفكار متضاربة تُقلقنى وتُمِضُّنى . ولكن حُبى لها كان فى نماء ، هو حب تجمّع فيه غرامُ العاشق ، وحُنوُّ الوالد ، وإخلاصُ الصديق . وكثيراً ما أجلستُها بجوارى ، وأحطتُها بذراعى ، وأدَمْتُ إليها النظر بشَغَف ، وقلتُ لها :

هلّا رغبتِ فى شيء فأحضرتُه من ساعتى ؟ لم أسمعْك تطلبين منى شيئاً !

— وماذا أطلب ؟

— أىَّ شيء .

فتبتسم فى وَدَاعة ، وتقول :

لم تدع لى ما أطلبه . إنك تفكّرُ فى كل شىء ، وتُحضر كلَّ ما أصبو إليه .

* * *

وكانت « رشدية » تذهب مرةً كلَّ شهر إلى « الست ريحانة » فتقضى عندها اليومَ كله . ولاحظتُ عليها أنها — قبلَ ذَهابها ، وعَقِبَ عودتها — تزداد صمتاً وانطواءً على نفسها ، ويبـــدو عليها مظهرُ الخفاءِ والغموض واضحاً جليًّا . وكانت إذا كَلَّمتْنِى لم تستطعْ رفعَ بصرها إلىّ . فأعجبُ لأمرها ، وتُساورُنِى شتَّى الوساوس ، وأقضى الوقتَ مضطرباً فى تحسُّر وتألم . . . . ثم أعود ثانياً إلى هدوئى . وأحملُ مَسْلَكَ « رشدية » على مَحْمِلِ شذوذ فى أطوارها لا يخلو من مثله إنسان .

وعند ما خرجتْ مرةً إلى « الست ريحانة » لتقضىَ يومَها على عادتها ، اعترانى قَلَق شديد ؛ فتركتُ المنزل إثْرَهَا وأنا معتزمٌ كشفَ سِرِّها . وما إن انتصفَ بى الطريق حتى شَعَرتُ بضميرى يثور علىَّ ، ويتهمنى بالتهوُّرِ وقلة التبصُّر . . . وخَجِلْتُ

من نفسى ، فتركتها وطريقَها وعدتُ إلى المنزل شديدَ الرغبة فى التكفير عن ظنونى الخبيثة .

أما فى المرة التالية ، فقد ازداد قلقى ، وانتابنى اهتياجٌ جديد . ولم أستطع بمختلِف الوسائل أن أَضْبُطَ عواطفى الثائرة ، واعتقدتُ اعتقاداً جازماً أن ضميرى وعقلى كانا يَغُشَّانِنِى ، وأن « رشدية » تُخفى تحت سِتار طهارتها وحيائها نفساً ماكرة ، وأنها استطاعت بفضل دهائها وغفلتى أن تتمكَّن من خديعتى . ووصلتُ إلى منزل « الست ريحانة » وأنا أشعر كأن نِصالا مسنونةً قَطَّعْنَ قلبى . . . وصَعِدْتُ فى الدَّرَجِ أقْفِز قفزات النَّمِر الهائج ، فوجدت البيتَ خالياً إلا من الخادِمِ العجوز . فأقبلتُ عليها أسألها ، فأجابتْ بأن سيدتَها خرجت مع « رشدية » إلى « القرافة » ، فقلتُ متعجِّباً :

القرافة ! أفتذهبان إليها كلَّ مرة ؟ ؟

— نعم يا سيدى كلَّ مرة .

— ماذا تعملان هناك ؟

فأجابتنى الخادِمُ فى لهجةٍ لم أدرِ أَلهجةُ خُبثٍ هِىَ أم لهجةُ استهزاء ؟ قالت :

وماذا يعمل الإنسان فى « القرافة » ؟

فهمتُ وعيناى تقدحان بالشرر :

حقا لقد أحْسَنَت اختيارَ المكان ! !

وتركتُ المنزلَ « والقرافةُ » وِجهتى . كنتُ أعرفُ مكانها ؛ إذ لم تكن تبعد عن قرافتنا طويلا . وأحكمتُ رَسْمَ خُطَّة تُنيلنى غرضى . وأردتُ أن أفاجئ « رشديّة » متلبسة بالجريمة .

وما إن وَصَلْتُ ، حتى أقبلتُ على الباب أُنْصِت ، فلم أسمع شيئا ، فدخلتُ فى حَذَر ، وسرتُ بخُطا لِصٍّ ماهر . كان السكون شاملا ، ونور النهار قد بدأ يضمحل ، فجُسْتُ خلالَ القبور المهدَّمة كأنى ثعلب جائع ، ودنوت من المقصورة الخشبيَّةِ التى تحوى أجداثَ الراحلينَ من الأسرة ، ووقفْتُ أنظر من بين الشُّقُوق ، وأنا أُعدُّ العدة لهجوم مفاجئ . . . . كانت المقصورة يغشاها بعضُ الظلمة ، ولكنى استطعتُ أن أتبينَ مَن فيها : « الست ريحانة » ملقيةٌ بظهرها إلى الحائط ، فى شبْهِ غَفْوة . أما « رشدية » فكانت بجوار قبرٍ تبكى ، متَّشِحَةً بطَرْحَة سوداء . كانت تخفى وجهَها فى منديلها وهى تَنْثُر الدموع ، صامتةً لا يُسمع منها إلا نشيج متتابِع . وجُلْتُ ببصرى فى أنحاء المقصورة أُدقِّق النظر

وأُغالط نفسى ، ثم وقفتْ عينى عند « رشدية » مرة أخرى ولم تعد تفارقُها . ولبثتُ على حالتى وقتا لا أُبدى حَراكاً حتى حسِبْتُنى قد صرت جزءا من الحائط الخشبى الذى كنت أنظر من شقوقه . ماذا كان شعورى فى تلك الساعة الرهيبة ؟ كنت فى حالة من الجمود لا عهدَ لى بها من قبل أُحَدِّقُ تحديق المخبول فى « رشدية » وهى بجوار القبر صامتة تبكى بلا انقطاع ، ولم تغير جِلْسَتَها فى الوقت كلِّه . . . ولا أدرى كم مضى علينا من الزمن ونحن على هذه الحال . . . ؟ وأخيراً شعَرتُ بـ « الست ريحانة » تستيقظ من خمولها ، وتَدْلِفُ نحو « رشدية » فتنبهها إلى أن الساعة قد آذنَتْ بالرحيل . فأسرعتُ إلى قبرِ أختى وراءه لأرقبَ ما يكون ، فرأيتهما تخرجان فى خَطَوَاتٍ متثاقلة ، وظَلِلْت أَتْبَعُهما بنظرى حتى أَخْفَاهُما الطريق . فدخلتُ إلى المقصورة ، ومضيت نحو القبر الذى كانت تَنْدُبه « رُشْدِيَّة » فقرأت ما هو مكتوب على الشاهد :

« أحمد يسرى .

مات ولم من العمر سبعة عشر ربيعا .

رحمه الله رحمة واسعة » .

ووقفتُ أكرِّرُ ما قرأت ، ثم أخذت أستعيد ما أذكره عن صاحب القبر . . . أحمد يسرى هو ابن عم « رشدية » ، كان فى مثلِ سِنِّها . وقد مضى على وفاته ما يَقْرُبُ من عام . . . وانطلق بى التفكير فى أمرها طويلا . وجعل خيالى يَرْسُمُ لى مشاهدَ من حياة الطفولة والصبا التى قضياها معا ، مشاهد شَتَّى كلُّها طريف ، وكلها مُفْعَم بالغبطة والآمال الحُلْوَة . . . وتلك العاطفة التى كانت تَشِبّ فى قلبيهما وتتوهَّج ، يُذْكِيها شباب غَضٌّ فَتِيٌّ . . . وأحسستُ بقُشَعْرِيرَة تنتَهِبُ جسدى . . . وهاجمنى ضِيقٌ عنيف . ورمقتُ القبر بنظرة ملتهبة ، وأمسكتُ بالشاهد ، كأنما أريد انتزاعه وتحطيمه .

. . . . سبعةَ عَشَرَ عاماً قضاها فى هذه الحياة كما يقضيها النَّيْزَكُ البرَّاقُ ، لا يكاد يلمع فى الأُفُق حتى يخبو نورُه ويتوارى فى غياهب الظُّلُمات ، ولكنها سبعةَ عَشَرَ عاماً مفعمةٌ بالحبِّ والشباب . فهى تُقاس فى نظرى بآلاف السنين . . . . الحبُّ والشباب ، لا الشفقة والشيخوخة . . . . الشفقة التى تُمْنَحُ كالصدقة للسائل التَّعِس ، والشيخوخة التى تَدِبُّ على عُكَّازَةِ الفناء ، لا يَحُوطُها غير الأنين . . . . وشَعَرْتُ كأنى أختنق

وكأن الأعوامَ الخمسين التى قطعتُها فى هذه الحياة قد تجمَّعَتْ كلُّها فوق كاهلى ، فحنَتْ ظهرى ، وأثقَلَتْ خُطاى . كأن هناك جبلاً يَرْسُو على عاتقى . . . وانكببتُ دَفعةً واحدةً على وجهى ، واسترسلتُ أبكى . . . . وأبكى ، وأبكى . . . .

ثم قمتُ ، وخرجتُ متمهِّلاً ، وعدتُ إلى دارى ، فناديتُ « رشدية » . فلما حضرتْ أدنيتُها منى ، وأمسكتُ يدها وقلتُ فى هدوء شامل :

لقد كنتِ فى القرافة يا « رشدية » . . . وفهمتُ كلَّ شىء !

وشَعَرْتُ بيدها تَختلج ، فلم أحوِّلْ بصرى إليها ، بل كنتُ أنظر دائماً أمامى ؛ وسمعتها تتمتم مضطربة :

سيدى . . . . سيدى . . . .

— كونى مطمئنة . إنى لا أحمل أيَّةَ ضغينة لكِ ولا لابن عمكِ المنكود الحظ . . . كل شىء قد انتهى . . .

فرفعتْ يدى إلى فمها ، وقبلتْها قبلةً عميقة . فأجلستُها على رُكْبتَىَّ ، وحدَّقتُ فيها تحديقاً حارًّا ؛ ثم طوقتُ خَصْرَها بساعِدِى ، وضممتها إلى صدرى ضمةَ المشتاق ، وقد تلاقت شِفاهُنا واشتبكتْ فى قبلة طويلة .

ورفعتْ « رشدية » بصرَها إلىّ ، كأنها تسائلنى متعجبةً عن سرِّ هذا العناق الذى لم تَتَذَوقْه منى قبلُ !

* * *

وفى اليوم التالى بعد الغَداء لم أذهب كعادتى لأَتَقَيَّل ، بل رغِبتُ إلى « رشدية » فى أن نلعب الورق . وكانت مَشْغُوفَةً به . ولم أكن أُجيب رغبتها فيه إلَّا نادراً ؛ إذ لم يكن لى جَلَد عليه ، ولا أجد فيه أيةَ سَلْوة ؛ وإنى لأفضل عليه النوم أو قراءة الصحف . ولما جاءت « رشدية » بالورق ، وجلستْ قُبالَتِى ، أخذتُ بيدَيْها وقلتُ :

ماذا يكون نصيب الرابح ؟

فابتسمتْ ولم تقل شيئاً ، وأومأتْ إلىّ إيماءة الرّضا بما أُفرِضُه عليها ، فقلتُ :

سنجعل للرابح مكافأة غيرَ محدودة .

— كيف ؟

— على المغلوب أن يُطيعَ الغالب فى كل ما يطلبه منه .

فابتسمتْ ثانياً ابتسامةَ الوِفاق .

وبدأنا نلعب ، وأظهرتُ حماسة شديدة ، فتشجعتْ « رشدية »

وطاوعتْ سجيَّتَها ، تقابلُ حماستى بأشدَّ منها . واجتهدتُ أن أخرج من المعركة مغلوباً ؛ فتورَّد وجه « رشدية » ، وقالتْ ، والسرور يتلألأ على وجهها :

نلعب دوراً آخر .

— طبعاً . وهل أدعك تتغلبين علىَّ ؟ مستحيل !

— سنرى .

ولعبنا الدور الثانى ، فتعمدتُ الانهزام ، وصحت محتجًّا ، و « رشدية » تَضِجُّ بالضحك ضَجيج طفلة مَرِحة . ثم لعبنا دوراً ثالثاً ، فخسِرْتُه أيضاً ، فتظاهرتُ بالهياج ، ورميتُ الورق وأنا ألعنه . فأقبلتْ علىَّ « رشديةُ » مزهوّةً بانتصارها ، وقالت :

لا تنس شروط الاتفاق !

— طبعاً . عليكِ أن تأمرى ، وعلىَّ أن أطيع !

فوقفتْ أمامى تفكر ، وتناولتُ يديْها ، ورحتُ أتأملها تأملا عميقاً . فقالت :

إنك تُضايقنى بهذه النظرات !

— وهل أستطيع أن أحوّل عينى عنكِ ؟

— دعنى أفكر !

وعادت إلى تفكيرها . ولما طال بها الأمر ، رفعتُ فى هدوء يدَيْها إلى فمى . وبعد قبلةٍ لطيفة قلتُ لها :

— اسمعى ، سأقوم مقامك فى هذه القضية . وسأفرض على نفسى الغرامات التى أستحقها .

فابتسمتْ وقالتْ :

وما هى هذه الغرامات ؟

— ستَرَيْن . . . إنما نريد الآن أن نخرج معاً .

— إلى أين ؟

— لا تكثرى من الأسئلة . اذهبى واستعدى .

وبعد حين خرجنا فى السيارة ، وقصدنا إلى محل « شيكوريل » ، وانتقيتُ لـ« رشدية » مجموعة من أفخر الثياب . ثم ذهبنا بعد ذلك إلى محل « عارف بك الجوهرى » بشارع المناخ ، فأرانا سِواراً ومِشبكا غاية فى دقةِ الصُّنْع وسلامة الذوق ، فلم أتردّدْ فى أخذهما لها .

وعدنا إلى السيارة و « رشدية » تغمرها الدهشة مما ترى ، فنظرتْ إلىّ وقالت :

كل هذا لى ؟

— بالطبع لكِ يا حبيبتى !

— ولـكن ....

— ليس هناك « لـكن » ....

فأرادتْ أن تتكلم ، فلم تعرف ماذا تقول ، فلبِثَتْ صامتة ، تدع لعينها أن تُفصح عما يجول فى خاطرها ، ثم ضغطَتْ يدى فى حُنُوٍّ بالغ . وقلتُ للسائق :

على « فلوران » يا أسطى ...

فقالتْ :

« فلوان » ؟ لمـاذا ؟

— أنسيتِ أننا سنقيم الليلة وليمة ؟

— وليمة ... ؟

— وليمة فاخرة !

— ومن هم المدعوون ؟

— كثيرون جدًّا .... أنا وأنتِ !

فضحكتْ ضحكةً لطيفة ، ورأيت فمها شَهِيًّا فقبّلْتُه قبـلةً عَطْشَى ... فعلتُ ذلك على مَرْأًى من السائق وعلى مسمعٍ منه ؛ لم أتورع !

ونزَلنا عند « فلوران » ، فاشتريتُ ألواناً متعددة من الْمُشَهِّيَات والِحرِّيفات ، وبضعَ زجاجات من أفخر الشمپانيا .

وعدنا إلى المنزل .

وكان حقًّا عَشاء فخما وسَهْرَةً ممتعة ، قضيناها بين أنغام الرَّديو والفونغراف والبِيان !

وفى الغد قصدتُ إلى طبيبى الخاصّ ، وخلوتُ به خَلْوَةً طويلة . . . ولما خرج ليودعَنى إلى الباب ، رَبَّتَ كتفى وهو يُناولنى تَذْكِرَةَ الدواء ، وقال :

قليل من الرياضة بجانب هذا الدواء ، كفيل أن يعيدك إلى الوراء عشرين عاما .

فضغطتُ يده شاكراً ، وقلبى تتزاحم فيه الآمال . ولما عدتُ إلى المنزل طلبتُ الطاهى ، وأخبرته بأنى سأضع له فى كلِّ يومٍ بَرْنَامَجَ الطعام ؛ فلا يَبِتُّ فى أمر دون استشارتى . وختمتُ كلامى معه بقولى :

أريد تنويعاً فى الطعام ، لا تظن أنى رجل هَرِمٌ يقنع دائماً « ببوريه البطاطس » والفراخ المسلوقة . إن معدتى تهضم الحجر ، عليك بالألوان الدَّسِمة الْمُتَوَبَّلَة . . . أفهمتَ ؟ ! !

ومنذ ذلك اليوم بدأتُ أُعْنَى عنايةً خاصةً بهندامى ، فاستبدلتُ خيّاطاً حاذقاً بخياطى القديم ، والتزمتُ تَصْفيفَ شعرى وتعطيره ، وقَصَّ شاربى على الطريقة الفَرَنْسِيَّة . وكنت إذا مَثَلتُ أمام المرآة اعتقدتُ اعتقاداً جازماً بأن ابن الخمسين لا يَقِلُّ نَضْرَةً وبهاء عن ابن العشرين . بل إن ابنَ الخمسين ليفوقُ الشابَّ باكتمال رجولته ونُضْجه وحُنْكَتِه .
وابتسمتُ ابتسامةً رائعة ، ثم رشَقْتُ فى جيب « سُتْرتى » مِنديلا من الحرير ورديًّا زاهِىَ اللون .

* * *

وكلما توالت الأيام ازددتُ كَلَفًا بـ « رشديّة » ، وأَغْدَقْتُ عليها الثمين من الهدايا والتُّحَف . . . ورأيتها قد خرجتْ عن تَحَفُّظِها القديم فأصبحتْ معى بلا كُلْفَة .

وجاءتنى مرةً ، وكنت مهتما بوَضعِ مِشْبَكٍ من اللؤلؤ فى رِباط رقبتى ؛ وبعد أن أطْرَتِ المِشْبَكَ أرتنى دَفتراً لصور السيارات ، وأشارت إلى عربة صغيرة ذاتِ مقعَدَيْن من نوع « البويك » . ثم وضعتْ رأسها على كتفى ، وأخذت تعبَثُ بشَعْر رأسى ، وقالتْ :

ما رأيُكَ فى هذه العربة « السبور » ؟

— بديعة ... ولكنى أراها صغيرة .

— ليست صغيرة على شخصين متحابَّيْن !

فنظرتُ إليها مبتسما ، وقلتُ :

ومن يسوق إذاً ؟

— أحد هذين المتحابيْن !

وقبَّلتْنى فى خدى قبلةً لطيفة ، وقالتْ :

جميع السيدات « الشيك » يَقُدْنَ سياراتهن بأنفسهن ... ولا تنس أن وجود السائق فى النزهات الخلَوِيَّة كثيراً ما يكون غيرَ مرغوبٍ فيه .

— صحيح !

— تصوَّرْ .... أنا وأنت ، ولا أحد سوانا ، تحتوينا هذه السيارة الصغيرة ، فى طريق السويس أو الفيوم ، فى ليلة مقمرة من ليالى الصيف ....

فضممتُها إلى صدرى ، وأنا أردِّد :

بديع .... بديع ! ....

وفى الغد ، كانت السيارة « البويك » ذات المقعَدَيْن أمام الباب ، وبدأتْ « رشدية » تتمرَّن على قيادتها .

٭
٭ ٭

وحلَّ العيد — وهو مَوْسِمُ القرافات — فدعوتُ « رشدية » وقلتُ لها :

لا تنسَيْ يا حبيبتى أننا سنذهب صباح الغد إلى القرافة !

فعَبَسَتْ قليلاً ، وقالتْ :

القرافة . . . !

— هذه عادة سنوية يجب أن نؤديَها احتراماً لموتانا . . . .

وتوقَّفْتُ برهة عن الكلام ، أتظاهر بأنى أُصلح رِباط رقبتى ، ثم قلتُ وقد خَفَّضْتُ من صوتى قليلا :

وسنذهب أيضاً إلى قرافتكم !

فغَضَّتْ من بصرها ولم تُجب ، وأخذت تعبَثُ بزِرِّ سُتْرَتى ، ثم خرجتْ ساهِمَةً .

وفى الغد ارتديتُ أفخر حُلَّةٍ عندى . ووجدتُ « رشدية » قد أتقنتْ زينتها إلى حدٍّ بعيد . فوقفتُ أنظر إليها ، مُعْجَباً بها فخوراً ، وقلت :

لم تستعملى هذا الكحل قبل اليوم !

— أيُعْجِبُكَ ؟

— جدًّا ، ثم تصفيف شعرك على هذا الوضع .

— ماذا ؟

— ساحرة ، ساحرة !

وركبنا السيارة ذاتَ المقعدين ، وكانت هى التى تقودها ، وذهبنا أولا إلى قرافتى ، ثم عَرَّجْنَا منها على قرافتها .

دخلتُ معها المقصـــورةَ الخشبيَّة ، ووقفنا معا أمام قبر « أحمـد يسرى » ، ورأيتُ « رشدية » قد أرخَتْ جَفْنَيْها وكأنها بدأت تستغرق فى شِبْهِ حُلْم . أما أنا فأخـذت أقرأ « الفاتحة » بصوت خافت . وحضرتْنِى فى تلك الساعة ذِكْرَى زيارتى لهذا القبر ، منذ بضعـة أشهر ، فوازنتُ بين موقف « رشدية » منى فى ذلك الوقت ، وموقفها منى فى الحالة التى أنا عليها الآن . فغلبتْنِى ضِحْكَة لم أستطع حَبْسَها ، ففتحتْ « رشدية » عينيها ، ونظرتْ إلىَّ متعجِّبَة ، فقلتُ لها على الأثَر :

سأنتظرك فى حجرة الزوار . . . أرجو ألا تطيلى زيارتك .

وخرجتُ وأنا أُظَلِّلُ وجهى بمنديلى المعطَّر الوردىِّ اللون ، وقصدتُ إلى حجرة الزوار ، وأخذت أتَسَلَّى بشىء من الفُسْتُق ، كنت قد ملأتُ به جيبى . ومكثتُ أنتظر . . . وطال

انتظارى ، وأخيراً خرجتُ وناديتُ « رشدية » :

ألم تنتهى بعد ؟ هَيَّا !

وتقدَّم منى « التُّربى » وقال فى بساطة :

السِّتّ ركبت « الأتمبيل » وراحت .

فنظرتُ إليه مصعوقاً ، وقلتُ :

— راحت ... ! إلى أين ؟

— لا أدرى يا سيدى .

وأسرعتُ إلى المقصورة ، ودُرْتُ بعينى فيها أبحثُ عنها ، فلم أجدها . ووقع بصرى على قبر « أحمد يسرى » ، بقامته الفَتِيّةِ الجبارة ، فرمقتُه بنظرة نَـكْرَاء ، ثم تركتُ المقصورةَ وصِحْت بـ « التربى » فى غَضَب :

اذهب وأْتِنِى « بتاكسى » فى الحال .

وركبتُ « التاكسى » وعدتُ إلى البيت ، وأنا أَغْلى كالمِرْجَل . . . ! !

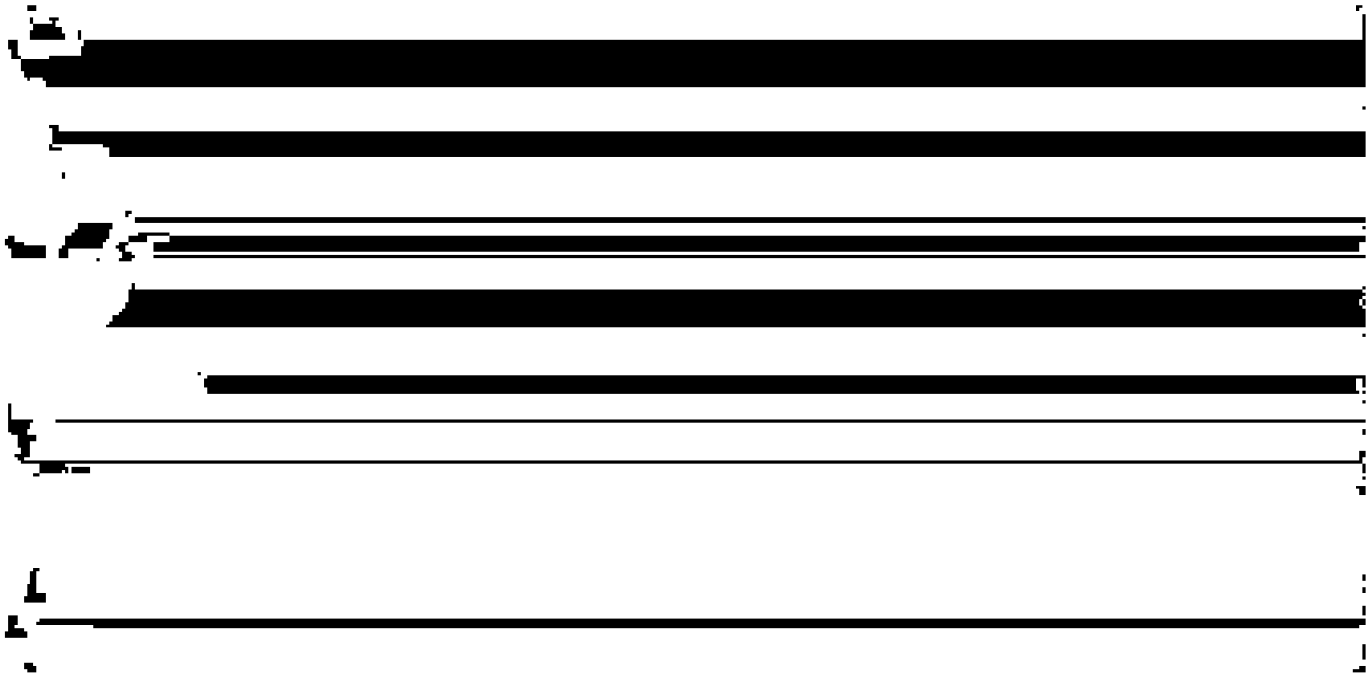

حرب

كانت لنا ضَيْعة فى « الشرقيّة » ، أُوالى التردُّدَ عليها ، لتعَهُّدِ أعمالها الزراعيّة . وكنتُ أعرف فيها رجلاً يُدعى « الشيخ عسَّاف » وهو نِسَّاج ، كثيراً ما زرتُه فى داره لأُشاهدَه وقت العمل يَنْسُج على نَوْله المتواضع البُدائىّ ، وهو يرحِّب بى فى كلِّ مرة أزوره فيها ، ويقدِّم لى تحيّته الريفية المعروفة : القهوة .

والرجل وقورُ النفس ، وسيم الطّلْعة ، حلو الحديث . له لحية مُهَنْدَمَة ، يختلط فى شعرها البياض بالسّواد . . . ماتت زوجتهُ منذ أعوام ، وخلَّفتْ له ابناً وحيداً ، هو كلُّ أسرته . عكف على تربيته وتعليمه صناعة النسْج ، حتى برع فيها ، وأصبح ساعده الأيمَن . وكان شابًّا جميلَ التكوين ، قوىّ البِنية ، تلتمع عيناه ذكاءً ونشاطاً . يُحبه أبوه أعظم الحبّ ، ويكثر من التحدّث عنه فى المجالس ، معدِّداً مواهبه فى زَهْوٍ وإعجاب .

وذهبتُ مرة إلى الضيْعة ، كعادتى ، فبوغِتُّ بخبر فاجع ، كان له أسوأُ وَقْع فى قلبى . . . علمت بأن ذلك الفتى مات قتيلاً تحتَ عجلات القطار !

فقصدتُ من فورى إلى « الشيخ عسّاف » فى داره ، لأُعزِّيَه عن نكبته ؛ فأحسن استقبالى ، وأكرم وِفادتى ، وقدّم لى — على عادته — قهوتَه الريفيـة ؛ ولكنه كان يروح ويجىء كالآلة المتحركة بلا رُوح . وشهدت عليه شحوباً وامتقاعَ لون ، وكنتُ أُحسُّ — وهو يتكلّم — أنه ينتزع الألفاظ من فمه فى جَهد ، وكأنه يلتمس الموضوعاتِ فى حَيْرَة ، ذلك الذى عرَفتُه لا تُعْوِزه طلاقة ، ولا يخونه بيان . . . ورأيتُه تعتريه نَوْباتُ صمت ووجوم ، يستيقظ منها مذعوراً ، ويتلفّت حواليه مدهوشاً ، كأنما يقول : أين كنتُ ؟ وأين أنا الآن ؟ ثم يستأنف حديثـه فى مشقة ومعـاناة . . .

وقد عزّيته بكلمة موجَزَة ، حاولتُ أن أُضمّنها حقيقة شعورى له ، فأجابنى بردٍّ ساذَج مألوف ، أدّاه بصوت حَبِيس ، ونبرات مختَلِجَة . . . وكان هـذا الحديث القصير كلّ ما تبادلناه من الكلام فى مصرع ولده الوحيد . ولمـا انتهت زيارتى ، هَزَزْتُ — فى صمتٍ — يَدَه طويلاً هِزّةَ الودّ والحنان . . .

وتلاحقت الأيام ، وتكرّرتْ زيارتى للضَّيْعة ، وكنتُ دائماً أسأل عن « الشيخ عسّاف » فيخبرونى أنه قلّمـا يخرج من

منزله ، فأذهب إليه ، وأقضي معه بعضَ الوقت ، فأراه يتهدَّم يوماً بعد يوم ، ويزداد وجهُه مِن شحوب وتجهُّم ، وتضعُف رغبتُه فى التحدّث والمسامرة . وقد ترك لحيَتَه لشأنها ، فتشعَّثت وقَذُرَتْ ، حتى بدتْ فى شكل بغيض . ولم يعبأ بملابسه ، فإذا هى مهلهلة تعلوها الأكدار . . . .

ورأيتُ مِنْسَجَه غارقاً فى صمته ووَحدته ، يَعِيثُ فيه الغبَار ، ويعمل عليه العنكبوت ! . . . وعلمتُ أنّ معيشته قد اضمَحَلّت ، وأنه باع جاموسته ودواجنه . أما منزله فصار خراباً ، يُخَيِّم عليه الإهمال ، لا يتنفّس عن حياة ؛ فهو أشبهُ بقبر متهدِّم عتيق ، غيرِ صالح حتى للأموات . . .

وأخذ الرجلُ فى بعض الأحيان يزورنى فى « الدَّوَّار » أداءً لحقِّ المجاملة ، فيقضى جُلَّ الوقت راكد النفس ، يتصفَّح همومه همًّا بعد همّ فى غيبوبة وارتياح . . . فإن تحدَّث لم ينبِس بحرف يَتَّصل بالكارثة التى دَهِمَتْ ولدَه ، فأثْكلَتْه إيّاه !

وبعد تناوله القهوةَ معى ذاتَ مرة ، رفع رأسه ، وسألنى قائلا :

ألا تستطيع أن تخبرنى يا سيدى البيه : بِمَ يشعر مَنْ يموت تحت عجلات القطار ؟ وما مبلغُ ألمه ؟

فباغتَنِى هذا السؤال ، وحاولتُ عبثاً إخفاء حيرتى ، فلم أتمالَكْ أن قلتُ له :

أظنّ أنه لا يَشعر بشىء ، إنها مِيتة سريعة . . .

فَجَهَرَ بقوله فى تأكيد :

يقينى أنه يُعانى أشدَّ الآلام !

واحتَقن وجهُــه ، وغارتْ تجاعيده أكثرَ من ذى قبل ، واحمرّتْ عيناه المُرْبَدّتَان ، وانتفخت عروقُ رقبته ، واضطرب تنفُّسه ؛ فاحترمتُ عاطفتَه المهتاجَة ولم أُجِب . وبَقِىَ كذلك برهة فى ثورة محتبِسة ، ثم هدأ شيئاً بعــد شىء ، وغَشِيَه الخمول . . .

ومرت الأيامُ تِلْوَ الأيّام ، وأنا أختلف إلى الضيعة فى الحين بعد الحين ، فأرى « الشيخ عسّاف » يَتَحَدّر من سَيِّئ إلى أسوأ ، حتى صار كالهيكل . فما إن يخطو قليلاً حتى تظهرَ عليه بوادر الإعياء ، وهو دائماً مستغرق فى صمته القَلِق ، وشروده البعيد ... حقًّا لقد كانت حالته تدعو إلى التألّم والرّثاء ، بيد أنه لم يكن فى المستطاع أن يواسيَه أحدٌ بشىء يخفِف من كُرْبته !

ومكثتُ مرةً فى الضيعة أسبوعاً ، شهِدت فى خلاله « الشيخ عسّاف » مرة واحدة . . . جاء فى ليلة سفرى إلى القاهرة ، وأنا منفرد فى الحديقة أَطلبُ الراحةَ لنفسى من عناء يومٍ كلُّه مَشْغَلَةٌ ونَصَب . وكان السكون الرازح يملأ المكان ؛ فجيانى الشيخ ، وجلس أمامى وهو يَنْهَج مُتْعَباً من السَّيْر . وبعد أن استراح قليلاً ، بادرنى بقوله :

لقد قصدتُكَ لحاجة . . . فهل أنتَ قاضِيها لى ؟

فقلتُ وقد تحقَّقْتُ أن الرجل يُعانى ضِيقاً ماليًّا :

طلبك مجاب يا شيخ عسّاف . . . كم تطلب ؟

فنظر إلىّ متعجِّباً ، وقال :

لا أطلبُ نقوداً يا سيدى !

— إذن ماذا ؟

— أتسمح لى بمرافقتِكَ إلى « الزقازيق » غداً ؟

فنظرتُ إليه فى دهشة . . . وابتسم ابتسامة خفيفة ، وقال :

أريد أن أرى الدنيا . . . أن أُسَرِّىَ عن نفسى قليلا . . . أن أشاهد خلقَ الله فى المدينة الكبيرة التى لم أرها إلَّا مرةً

فى صِباىَ . . . أتجِدُ فى طلبى هذا ما يثير العَجَب ؟

وكان يتكلَّم بلهجة متَّزِنة رقيقة ، وقد بدأ وجهُه يُشرق إشراقه القديم . وأخذ بيدى ، وجعل يُلاطفها فى إلحاح ، وهو يقول :

ألا تُجيبنى إلى طلبى ؟

فقلتُ له ، وما زلت متحيِّراً :

أُجيبُك إليه إذا كان يَسرّك . . .

فلمعتْ عيناه ، وقال :

يَسُرُّنى جدًّا !

ومن ثَمَّ أخذ يُسامرنى بشىء من طرائفه التى كان يُمتعنى بها ، وأكاد أنساها لطول غيبتها عنى . . . وكان وهو يَمضى فى حديثه كأنه يجلو الصدأ عن تُحفةٍ نفيسة مهملة ، ويَعْرضها من جديد متألِّقةً تستهوى القلوب !

ولم يطل مكوثه معى ، إذْ بدا عليه الفتور سريعاً ، فأعفيتُه من جَلْسته . وقام وهو يشكرنى ، ويكرِّر لى عزمه على مرافقتى إلى « الزقازيق » .

وفى صباح الغد أعدّوا لنا العربة ذاتَ البغلتين المهزولتين ، واعتلى مَقعد القيادة فلاحٌ بلبدة سمراء وجلباب أزهر . وكانت فى يمناه عصا طويلة ليّنة يتخذها سوطاً . وصَعِدتُ فى العربة أنا وناظر الضيعة . وارتقبنا مجىء « الشيخ عسّاف » . ولما طال بنا المكثُ ، قال لى الناظر :

إن الرجل لن يحضُرَ على ما أظنّ . وقد أزِفَ موعد القطار .

فأجبته قائلا :

وهذا رأيى أيضاً . . . هيّا بنا .

وما كادت العربة تتحرّك ، حتى سمعنا صوتاً متقطّع الأنفاس ينادينا . فالتفتّ فإذا بالشيخ عسّاف يجرى صَوْبَنا ، على قدر جهده وقوته . وهو يلوّح لنا بكلتا يديه . فأمرت الخُوذِىَّ أن يقف . وجاء الرجل فارتقى العربة ، وتهالك على المقْعَد فى حالة تُشبه الإغماء ، وهو يتمتم قائلا :

كادت تفوتنى الفرصة . . .

وسرنا . . . وقد أخذ الشيخ يستعيد قوته ، ثم راح يبذل ما فى وُسعه ليسامرَنا . ولكنه أخفق ، إذ كانت موضوعاتُه

مضطربةً تافهة ، ولهجته متقطِّعة مختلَّة . وكان ينسى نفسَه ، ويستغرق فى وجوم عجيب ؛ وتصيبه الرِّعْدَة أحياناً ، كأنه مقرور أو محموم .

وأخيراً . . . وصَلْنا ، ونزَلنا عن العربة ، ودخلنا المحطّة . ثم قصدنا إلى المشرَب ، وطلبنا قهوة ، واشترينا لفائفَ تبغ . وما هى إلا أن قلَّ كلام الشيخ حتى أصبح نادراً ، وعكف على قهوته يحتسيها ، وعلى لفائفه يدخِّنها . ولاحظت أن وجهَه يَغْشاه الامتقاع ، وأن شفتيْه ترتعشان بين آن وآن . . . . . .

وأخرجتُ ساعتى ، وقلتُ :

بَقِىَ على وصول القِطار خمسُ دقائق !

فرفع « الشيخ عسّاف » رأسه ، وقال وهو يستعد للقيام :

هَـــلُمَّ . . .

وقمنا إلى الرصيف . وبعد قليل سمعنا هدير القطار ، ثم رأيناه يهجُم على المحطة هجوم الغازى المنتصِر . وبينما كنتُ مشغولا مع الناظر والحَمَّال بإعداد الحقائب ، سمعت صِياحاً عالياً تَبِعَتْه جَلَبة وهَرْج . ثم شاهدتُ ازدحاماً على جهة من الرصيف ، وطرقتْ سمعى هذه الجملة :

— ٧٤ —

لقد تهشَّم وتقطَّع إرْباً إرْبا . . .

وجريتُ صوبَ الزِّحام ، واستطعت أن أرى تحت عجلات القِطار دماً يتسايَلُ ، وبقايا أثوابٍ متناثرة ، وأشتاتاً من لحمٍ آدميّ . . .

والتفتُّ حولى أتفقّد « الشيخ عسّاف » فلم أعثُر لشخصه على أثر !

غازي سانة

جرَى ذلك عامَ ١٩١٥ والحرب العظمى على أشدِّها : رائحة البارود والدم تُفْعِم الأنوف ، وتَجْثِمُ على الصدور . جوٌّ خانق كلُّه فزع ورهبة .

كانت القاهرة فى ذلك الوقت تَزْخَر بالجنود البريطانية . تصادفهم فى كل مكان ، فيخيَّل لك أنهم زرع سامٌّ ينبت بين كل خُطوة تخطوها فى الطريق . تعترضك عربات « اللورى » الضخمة ، فتراهم مُتراصّين كالخرفان المسوقة للذبح ؛ يُنشِدون أغانيَهم الوطنية بصوتهم الضخم الجاف . وقد يلتقى نظرك بنظرهم ، فإذا بهم يجبَهُونَكَ بوجوههم المحتقنة المشدودة ، وعيونهم الملتهبة التى تتمثل فيها رغباتُ النفس الجامحة ، وابتساماتهم التى تَحمل طابَعَ الترفّع والازدراء .

وقد كنتُ آنئذٍ أسكن فى « شارع محمد على » ، فصار لِزاماً علىّ عند أَوْبتى إلى المنزل أن أستقلَّ ترامَ القلعة ، والقلعةُ — كما هو معلوم — مُعسكَر مُهِمٌّ من المعسكرات البريطانية .

وكان ركوبُ هذا الترام من الأعمال الشاقة التى تتطلَّب بطولةً فى تلك الأيام ، فإذا استطعتَ أن تجد مكانا لقدمٍ واحدةٍ على السلَّم ، وأنت متشبِّثٌ بيدك ، عددتَ ذلك مِنَّـــةً من الله تستوجب الحمد . والعجيب أن يستطيعَ التحركَ وهو مثقَل بأولئك الجنود وعامة الناس المـكدَّسين فيه ، بعضهم على بعض .

رأيتُها وأنا واقف أنتظر مجىء هذا الترام . . .

وبعد قليل أقبل يتعثَّر فى إعياء وجهد . وبينما كنت فى حَيرةٍ من أمرى ، أُقلِّب النظر باحثًا عن موضع لقدمى ، إذا بها تمرُق كالسهم النافذ بين الناس ، وتأخذ مكانها فى مقصورة الدرجة الأولى فى غير عُسر . فوقفت مشدوها . . . ولم تمض لحظةٌ حتى وجدتُنى أثب فى سرعه البرق ، فإذا أنا بجوارها . والتفتَ كلٌّ منا إلى صاحبه ، وتلاقتْ نظراتُنـا . وكان معنا فى المقصورة نفسها بعض الضباط الانجليز ، جالسين فى أوضاعٍ غريبة تثير الضحك والغيظ معاً ، قابضين بأسنانهم الصُّفر على « غلايينهم » الكريهة الرائحة ، وهم كالأصنام لا يتحركون . فلم يُثر دخولُنا انتباهَهُم ، وظلوا على حالتهم ، تُنطِق هيئتهم باحتقار شنيع لنـا .

وحانت منى التفاتة إلى جارتى ، فالتقى بصرى ببصرها مرةً ثانية ، وابتسمنا . . . وكانت فتاةً وسيمةَ الطلعة ، خفيفةَ الحركة ، فى عينيها بريق يتكلم . فشُغِلْتُ بأمرها ، وقام فى نفسى أنها ليست غريبةً عنى مطلقاً ، وأنى لابدَّ رأيتها قبلَ هذه المرة . . .

وتلاقت عينانا مرةً ثالثة ، وإذا كلٌّ منا يُطيل التحديق فى صاحبه ؛ ثم هتفتُ فى دهشة :

نَرْجِس . . . أهذا ممكن ؟

وسمعتُها تجيبنى صائحة :

عبده بيــه !

وشَعَرنا بأننا تجاوزنا الحدَّ فى رفع الكُلْفة بيننا ، وخشِينا أن نكون قد أقلقنا رفاقَنا الضباط . فالتفتنا نحوهم ، فإذا بهم غارقون فى جمودهم ، لا يَعنيهم من أمرنا شىء .

وأمسكتُ يدها ، وضغَطْتُها وأنا أقول :

اتفاق مدهش أن نلتقىَ هنا بعد انقطاع أعوام مديدة !

وأخذتُ أرنو إليها طويلاً : يا لله ! فارِقٌ عظيم ! أين هذه الغادةُ الجالسةُ بجانبى الآن ، تلك التى تتضوَّعُ تأنُّثاً وفتنةً ،

من نرجس أمس ، صَبِيّة الأزِقّة وشريدة الطُّرُقات ؟ . . .

وقلتُ وأنا أبتسم :

ما هذه « الشياكة » الجديدة يا نرجس ؟

فما إن سمِعَتْ جملتى ، حتى أشاحتْ بوجهها ، وأخذت تتظاهر بتصفيف شعرها ، وتنسيق قُبَّعتها . ثم اعتدلَتْ وقالت غيرَ ملتفتةٍ إلىَّ :

إن اسمى الآن نونى . . .

فقلتُ على الأثر مردِّداً :

نونى !

— نعم نونى . . . ألا يُعجبك ؟

اسم ظريف .

— وقد فتحنا أنا وأمى حانةً بشارع المهدى اسمها « هايد پارك » . . . تعالَ زُرنا .

— بكلّ سرور .

وكان أحد رفاقنا الضباط يتجه — فى هذه الفَترة — بنظرته وِجْهَةَ النافذة ، فرأيتهُ قد التفتَ إلى نرجس . . . وما إن وقع بصرُها عليه حتى صاحتْ مسرورة :

هالو ويلى !

ومدَّت إليه يديها ، فأمسك بهما ، وهزَّهما فى تَشَوُّق ، وقال مُهَلِّلاً :

هالو نونى !

ورمقتْنى « نرجس » بنظرة كلُّها زَهْو وتفاخُر ، تكاد قَسِماتُها تنطق قائلة : أرأيتَ أصدقائى ، من أىِّ الطبقات هم ؟

فابتسمتُ ساخراً .

وكان موضع نزولى قد اقترب ، فقلت لها وأنا أتهيَّأُ لمغادرة الترام :

متى أستطيع أن أراكِ ؟

فأجابتْ فى إهمال لم تتكلَّف معه أن تُديرَ وجهها إلىّ :

غدا فى الساعة الخامسة مَساء إذا شئتَ !

وقفزتُ من الترام ، والغضبُ آخذٌ منى كلَّ مأخذ ، وسرتُ أُسائل نفسى فى عَجب : لماذا طلبتُ أن أزورَها ؟ أيبلغُ منى الاهتمامُ بأمرها هذا الحدّ ؟ وهل نسيتُ من تكون هى ؟ ومن أى الأوكار دَرَجَتْ ؟ وكيف كنتُ أعاملها قبلَ خمسة أعوام ؟

✲ ✲ ✲

كانت « نرجس » صَبِيَّة لا تتجاوز الثالثةَ عَشرة ، يتيمةَ الأب ، تظهر فى الحارة التى كنتُ أسكنها فى هيئة مُزْرِية تَنُمُّ عن حياة فاقة وَضَعة . . . أوَ أنسى منظَرها وهى تروح وتغدو مشعَّثة الشعر ، مغبرة الوجه ، لم تمسَسْه بالماء منذ أشهر ؛ ملطخة القدمين بالوحَل ، لم تعرف لهما حذاءً من قبل ؟ . . . وما كنتُ أدرى على التحقيق أيةَ مهنة تزاولها أمها ؟ ولكننى أدرى أنها تُحيط بها غمامةٌ من الأسرار ، وتنتثر حولها أشتاتٌ من الأقاويل ! . . .

كنتُ ، فى ذلك الحين ، فى الخامسةَ عشرةَ من عمرى ، أقضى وقتَ فراغى بجوار نافذة غرفتى ، أغازل جاراتى الصغيرات من بعيد . فإذا ما فَرَغتُ من المغازلة انصرفت إلى أوراقى ، فأخذت أُدَبِّجُ رسائل الغرام ، جامحةَ الخيال ، كثيرة التزويق . وربما اضطرتنى حماستى لعملى أن أسهر حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل . وكانت « نرجس » ساعيةَ البريد بينى وبين صديقاتى ، تحمل رسائلى إليهنّ ، وتجلِبُ ردودهن إلىّ . فأتعهدها نظير قيامها بهذه المهمَّة بِمنَحٍ ضئيلة تتلقّاها ببشْر وارتياح .

وكنتُ أحيانا أستعذب حديثها ، فأستزيدها منه ، وأنظر إلى وجهِها مُحَدِّقاً فتُعجبني وسامته ، وتروقُنِي نظراتها التى تنطوى

على شيء من الفتنة ؛ فيبعث صنيعي هـذا في نفسها لوناً من السرور الأعمى ، لا تملك معه إلا أن تترامى عليّ ، وتنهالُ على يدى تقبيلا .

وأخيراً شَعَرتُ بأن الفتاة قد بدأتْ تمتعض كلَّما كلَّفتها إبلاغَ رسائلى إلى الصديقات . . . ورأيتها مرة تتناولُ الرسالةَ من يدى فى تلكُّؤ ، ولم تتحرك من مكانها ، فصرختُ فيها :

ماذا يدعوكِ إلى الوقوف والتباطُؤِ فى تلبية رغبتى ؟

ودفعتُها بشدّة ، فكادت تنكبّ على وجهها ، وخاطبتُها فى خشونةٍ قائلا :

ألستِ تتناولين منّى ما فيه الكفاية ، نظيرَ قيامكِ بهذا العمل الهيِّن ؟

— وهل تظنُّ أنى أفعل ذلك نظيرَ نقودكَ ؟

— إذاً نظير أىِّ شيء ؟ . . . لا تُطيلى الكلام . . . اذهبى عنِّى !

فلم تتزحزح من مكانها ، ونظرتْ إلىّ نظرة طويلة لم أفهم معناها . أكان فيها عتاب ، أم توسُّل ؟ وشَعَرتُ بتهيُّب

عجيب لم أشعر به من قبلُ أمام هذه المخلوقة الحقيرة ، تهيُّب أقلقنى وحيَّرنى !

ورأيتها تثور دَفعة واحدة ، فتهوِى على الرسالة تمزّقها كلّ ممزَّق ، وتقذف بها فى وجهى . . .

*
* *

توالتْ هذه الذِّكْرَيَات على خاطرى سِرَاعاً ، وأنا فى طريق إلى المنزل بعد مقابلتى لـ« نَرْجِس » فى الترام .

واعتزمتُ ألاّ أذهبَ إليها فى الموعد الذى عَيَّنَتْه لى . وفى الغد أمضيتُ الوقتَ كعادتى كلّ يوم ؛ غير أنى كنت ضيِّق الصدر ، ثائرَ الأعصاب ، لا تبرح خيالى حوادثُ « نرجس » الماضية . فأقابل بين شريدة الأمس ، وغانية اليوم . حقاً لقد أصبح تحوُّلها شاملا كل شىء ، حتى لكأنها خُلقتْ خَلْقاً جديداً . . . وما شأنها بهذا الضابط الانجليزى ؛ وحانة « هايدپارك » ! حسب المرء أن يسمع اسمها ، ليعلم فى أىِّ الأغراض أُنشِئَت ؟ وإنّى لَتَتَمَثَّل الحانةُ لمُخَيِّلَتى ، وبجوار اسمها ورقة مكتوب عليها بالحروف الكبيرة : In Bounds (١)

(١) مصرح للعساكر بدخول المحل

وظلّت هذه الأفكار تتضارب فى رأسى يومىَ كلهَّ ، حتى دنت الساعة من الخامسة ، موعد « نرجس » ، فغيّرتُ رأيى فجأة ، ونهضتُ قاصداً « شارع المهدى » .

دخلتُ الحانة وأنا أرمُقُ مُحْنَقاً ساعةَ يدى ، لقد تأخّرتُ ربع ساعة عن الموعد ، لِمَا أمضيتُه من الوقت أتأنّق فى الملبَس والهندام . ودرتُ بعينى فى أرجاء الحانة فلم أجد أحداً . وكان المكان واسعاً مُعْتِماً يسودُهُ وَخَمٌ وعُبوس . فى الصدر مِنَصَّة عريضة مُعَدّة لجَوْقَة الموسيقى ، تتراصّ أمامها المناضد والمقاعد على نظام عسكرىّ ، فكأننى أرى قاعة طعامٍ فى ثُكْنَة . كل شىء فى الحانةِ مُبْتَذَلٌ لا يَنِمّ عن ذوق أو فنّ .

وسرت بضع خَطَوَات أَتَلَفَّت هنا وهنالك . وأخيراً وقع بصرى على مخلوق مُكَوَّم على مَقْعـــد ، مُلقَى الرأس على مِنْضدة . وسمعتُ حَشْرَجَةَ أنفاسه ، فصرختُ منادياً :

جرسون ! جرسون !

واستيقظ الرجل يتمطّى فى بشاعة ، ويمسح اللُّعاب المتساقطَ من فمه ، وحدَجنى بنظرة شزراء قائلا :

ماذا تريد ؟

— أخبر نرجس . . . أقصد مدموازيل نونى . . . بأنى هنـــا !

فنظر إلىّ فى ازدراء ، وقال :

من حضرتك ؟

— قل لها : عبده بيـه .

فهرش رأسه ، وقال وهو يتثاءب :

المدموازيل ليست هنا . . .

فقلتُ محتـــدًا :

ليست هنا ! كيف ؟ يظهر أنك مازلتَ نائماً . . . عندى موعد معها ، أسامعٌ أنت ؟

— موعد أو غير موعد . . . المدموازيل ليست هنا . . .

فكظمتُ غيظى ، وقلتُ :

ومتى تحضُر ؟

— بعد السابعة .

— قلت لك إنى على موعد معها فى الخامسة .

— وأنا مالى !

وأولانى ظهره وسار ، فصحتُ به قائلا :

أحضرْ لى واحد بيرة مثلّجة حالا .

. . . ولا أدرى كيف استطعتُ أن أمكثَ ساعتين فى هذا المكان الكريه ، وأنا لم أفارق مِنضدتى ، منتظراً « نرجس » ؟ وكيف سوّلتْ لى نفسى احتساء أربعة أقداح من هذه « البيرة » الغثّة ؟ ! وكيف لم يَقُمْ فى نفسى أن أترك المكان لأعودَ إليه فى الساعة السابعة ، ما دام الرأىُ قد استقرّ على مقابلتى إياها مهما يكلّفنى الأمر ؟

وفى هــذه الفَترة حضر بعضُ العساكر الإنجليز بوجوههم المحتَقِنَة ، ومِشْيَتهم الصُّلبة ، يَقرعون أرض الحانة بخَطَواتهم الثقيلة المرتَّبة ، كأنهم فى ساحة عرض . كانوا يجلسون حول المناضد يكرَعون « البيرة » فى شرهٍ ، وتنطلق من أفوههم بغتةً بعض الصَّيْحات ، ثم يخيِّم عليهم الصمت . وقد يصعَد أحدهم المِنصَّــة ، ويُغَنِّى عازفاً على البِيـان بصوت أجَشّ رهيب ، فيردِّد رفاقُه مقاطع غنائه فى وقار وتخشُّع ، فتتراءى لى الحانة كأنما انقلبت إلى كنيسة يصلِّى فيها قِسِّيس على ميّت ، والناس من حوله يُرتِّلون أدعيتهم ضارعين !

وأخذت الحانة تمتلئ رُوَيْدًا بهذا الصِّنف « الخاكى » من

عباد الله . . . وتعالى الضجيج شيئاً فشيئاً وهو ينعقد فى الجوّ مع سحائب الدخان الكريه الرائحة .

ولم أر مُطرَبَشاً غيرى فى هذا المكان على كثرة من فيه ، كلهم « خاكيُون » بلا تمييز . . . فإذا وقع بصرُ أحدِهم علىّ — وأنا قابع فى ركنى ، وأقداح « البيرة » أمامى — أطلق من فيه ضِحْكَة ساخرة ؛ ثم أهمل أمرى ، ولم يعد ينظر إلىّ !

وبينما أنا مستغرق فى وَحدتى ، والغضب آخذٌ منّى كلّ مأخذ ، إذ ظهرتْ « نرجس » مرتدية ثوباً نِصْفِيًّا من الحرير الأبيض ، و « سترة » تماثِل ما يَلبسه الضباط . ظهرت تتلألأ فى ذلك الجوّ العابس ، كما يتلألأ النجم فى الليلة الحالكة الإهاب . . . وراحت تتنقّل بين الموائد تنثُر ابتساماتِها يَمْنَةً ويَسْرَة ، كأنها تنثر الأزاهر الناضرة . فيقابلها الجمع بالبشر والتهليل ، ويحتجزها بعضُهم وقتاً يغمرها فيه بكلمات الإعجاب . وقد يُمسك أحدهم يدها فجأةً ، فيغتصب منها قبلة يُودِعُها أنفاسَه الحارَّةَ الظمأى . . . . وكانت ترحِّب بهم جميعاً فى رشاقة ، وتبادلهم النّكات فى ظَرف ، وتضاحكهم وتداعبهم فى سحر وإغراء . فينقلب ذلك المكان الخانق حديقةً غَنّاء يُراوِحُها نسيم لطيف يُنْعِش القلوب !

وقد لمحتنى « نرجس » من بعيد ، ولكنها تجاهلتْ وجودى وظلّت تحتفى بضيوفها « الخاكيّين » حتى لم يبق منهم أحد إلا وقد حَظِىَ منها بقبلة أو ابتسامة أو نَظْرة . . . وكانت قد اقتربتْ من مِنْضَدَتى ، فرفعتْ بصرها إلىّ ، وتظاهرتْ بالدهشة ، ثم قالت وعلى فمها ابتسامة صغيرة :

أأنت هنا ؟

ومدتْ إلىّ يدها متراخية ، كأنما تريد أن تحملنى على تقبيلها ، فلمستُ أناملَها لمساً ، وابتسمتُ فى جفاء وأنا أحْدِجها بنظرة ملتهبة . فأمالتْ بصرها عنى ، ثم أخذتْ بيدى وأجلستْنى فى ركن منعزل ، وجلستْ على طَرَف المِنْضَدَة ، ووضعت ساقاً على ساق ، ثم أشعلتْ لِفافة ، وقالت وهى تنفُثُ الدخان فى إهمال :

متى حضرتَ ؟

— منذ ساعتين ، وَفْقَ الموعد الذى اتفقنا عليه

وسَرعانَ ما أسفتُ لتعجّلى فى إعلان تلك الحقيقة ، وأردتُ أن أستدرك قولى ، لافْهِمَها أنى لم أحضُر إلا منذ دقائق . ولكن عصانى فمى ، ولم يتحرك لسانى بحرف . أمّا هى فقد هزتْ رجليها فى عبث ، وأطرقتْ برأسها تقول :

هل اتفقنا على موعد ؟ . . . لا بد أن يكون هناك سوء تفاهم !

فلم أُجب ، وصحت بـ « الجرسون » ودفعتُ له الحساب فى اهتياج ، وقلت لـ « نرجس » وأنا على أُهْبَة الخروج :

أورڤوار !

فأمسكتْ بذراعى ، وقالت :

اجلس . . .

وتبيَّن لى التوسلُ فى لهجتها ، فأجبتُها وما زلتُ معتزماً أن أُغادر المكان :

ماذا تريدين ؟

— اجلس ، اجلس !

وكانت وهى تقول ذلك تدفعنى إلى الكرسىّ ، مبالِغةً فى التلطف والمداعبة . فجلستُ ، ورأيتُها تجلس على ركبتى فى جرأة غريبة ، وأخذتْ تُربِّتُ خدى وتقول :

ألا تطلبُ لى شيئاً ؟

فقلت وأنا على جَفْوَتى :

ماذا تريدين ؟

— ما يروقُكَ !

— فنجان قهوة ....

فقهقهتْ ، ولاحظتُ أن ضحكتها كانت طبيعيةً لا تخلو من سذاجة الأطفال ، فضحكتُ أنا أيضاً . وراحت تقول :

خليك ذوق يا شيخ ، وكن كريماً مع السيدات !

وصفَّقتْ تطلب الخادم ، ثم أمرتْ بزجاجة شمپانيا دون أن تستشيرنى ، فنظرت إليها مشدوهاً ، فقالت على الفور :

أيسوءك أن أشرب معك كأسين من الشمپانيا ؟

— كلا . . .

وبدأنا نحتسى أكواب الشمپانيا ، وازدادت « نرجس » تلطُّفاً بى ، وكان حديثُها معى خالياً من الإدّعاء والتصنُّع ، يُفْصِح عما انطوتْ عليه نفسها من صفاء . فعجبتُ لأمرها ؛ ولكنى شَعَرتُ بارتياح كبير وأنا بجانبها ، فبادلتُها الودَّ ، ومضيتُ أشربُ معها فى مرَحٍ وإيناس ، وأخذتْ تحدِّثنى عن أشياء كثيرة ، عن الحانة ، عن ضيوفها الانجليز ، عن أثوابها . . . إلى غير ذلك مما يحيط بها من مظاهر الحياة . وكانت — فيما تحدَّث — جِدَّ تافهة ، بيد أنى كنتُ أُصغِى إليها فى شغَف

وإقبال ، وأتلقَّى حديثَها كما يتلقَّى المحروم أطيبَ الطعام . وهى فى الفَترة بعد الفترة تُرسل النِّكات عذبةً سائغة ، تُتْبِعُها بضحكاتٍ رنّانة فى خِفَّة وطرب .

وكنا فى مَعزِل عن كل شىء ، لا نُحِسُّ الضجةَ القائمة حولنا ، تلك الضجة التى كانت تخترق الجدران عابثةً تُقلِقُ الحىَّ بأكمله ، إذ يختلط فيها الصياح والعربدة ، بالموسيقى والغِناء ... لم نكن نُحِسّ إلا وجودَنا ، ولا نسمع إلا لَغَط أصواتنا وقهقهةَ ضحكنا ، ولا نرى فى ذلك المكان المزدحم بمختلِفِ الوجوه إلا وجهَيْنا نحن . . . يا لله ! ما أروعَها من ساعةٍ تلك التى قضيتُها مع « نرجس » فى ذلك اليوم ! لقد كشفتْ لى عن حقيقةِ نفسها ، فإذا هى ما زالتْ تلك الصبيَّةَ الوديعة الوفيَّة التى تحمل بين جنبيها ذلك القلبَ الطَّهور !

ولاحظتُ أنها لم تُشر إلى ماضيها من بعيد أو قريب ، وكلما انساق الحديث من تلقاء نفسه إلى هذا المتَّجَه ، أسرعتْ فحوَّلته فى لباقة عن طريقِه . فاحترمتُ رغبتها ، ولم أنْبِس بكلمة تَمسُّ ذلك العهدَ البائد

وفيما نحن فى مَلكوتِنا نسبَح لاهِينَ ، إذْ طرق سمعى صوت

أجشٌّ ينادى صديقتى ، فرفعتُ رأسى ، فإذا بى أمام سيدة ، بادنة ، ترتدى السواد فى احتشام مزيَّف ، مخَضَّبة الوجه بشكل زَرِىّ . . . لقد كانت أمَّها ، عرَفتُها من أول نظرة ، أما هى فلم تعرفنى ، أو تظاهرتْ بأنها تجهلُنى . ولما قدَّمَتْنِى ابنتها إليها ، حنَتْ رأسها فى تكلّف ، ورمقتنى بنظرة بغيضة كأنها تقول : ما لِهذا الأجنبىّ وما لَنا ؟ !

وكانت « نرجس » فى حالة غير طبيعية ، حالةِ شخص كان نائماً نوماً مغنطيسياً وقد بدأ يستيقظ ، عائداً الهُوَيْنى إلى حالته الأولى ؛ كانت تنظر إلىّ نظراتٍ مريبةً هى خليط من ذهول وامتعاض ، يبدو على حركاتها بعض الارتباك . فهل هى تأسف على ما كان منها معى ؟ أم هى تحاولُ إخفاء ما يخالجُ قلبها من شعور غامض دفين ؟

وانحنت أمها عليها تُسِرّ إليها بضع كلمات ، ففهمتُ أن الوقت قد حان لأن تتركَنى . ورأيت « نرجس » تمدّ إلىّ يدها ، فأخذتُها فى يدى ، وانحنيتُ عليها ، وقبلتُها قبلةً حارَّة طويلة . ولما رفعتُ رأسى ، وجدتُها تحدِّق فىّ ، كأنها تسألنى : أحقًّا أنت نفسك الذى قبَّلتَ يدى ؟ ووقفنا برهةً وجهاً لوجه ، وعيوننا

متقابلة ، كأنما قد وَصَلَ بينها تيّار كَهْرَبِيّ . وما هى إلا أن شَعَرَتْ بها تجذب يدها من يدى ، وقد نَحَّت نظراتِها عنى ، ورفعتْ رأسَها المتهلّل بالبشر ، وقالت فى لهجة انتصار :

أورڤوار ، عبده !

فأجبتها :

أورڤوار ، نونى !

وإذا بها تبتعد مختفيةً بين المناضد ، وهى تُلوّح لى بيدها ، والابتسامةُ تَرِفّ على ثغرها الدقيق . . .

وغادرتُ الحانة ، يَعِجّ رأسى بمختلف الأفكار ، وتجيش نفسى بشتّى العواطف . . . يالَسِحْر هذه الفتاة ! إنها بدعة فنية صاغها الله فتنةً للبشر ، ولكن أيّة حياة تحياها ؟ وفى أىّ الأوكار تعيش ؟ إنها زهرة تتنفّس فى حظائر الدوابّ !

. . . . . وبدأتْ ذِكْرَيات الماضى تغزو رأسى ، فتراءتْ لى « نرجس » القديمة ، شريدة قذرة ، مهلهلة الثياب ، تعدو فى الحارة بشعرها الأشعث . رأيتها تدنو منى ، وتسير متبخترةً أمامى ، ثم ترفع إلى فمى يدها . . . يدَها المشقَّقَة الوَحِلَة ، وتقول فى غطرسة مُنكَرَة : قبّلْها ! . . . فإذا بى أدفعها دفعاً شديداً ، وأنهرها بقَسْوة . . !

وانتبهتْ نفسى من غفوتها ، فإذا بى ضيّق الصدر ، ثائر الأعصاب . وخطر ببالى أن أعود إلى حانة « هايد بارك » وأن أستدعىَ إلىّ « نرجس » على الفور . . . وطرق سمعى فى ذلك الوقت صوتٌ متّزن يردّد : « وَن . تو . ون . تو » يصحَبه خَفْقُ أقدام منتظم ، فالتفتّ فإذا بدَوْرِيّة صغيرة من بوليس الجيش الإنجليزى تجتاز الشارع ، فلم أولِهَا شيئاً من اهتمامى ، وتابعتُ سيرى إلى منزلى ، يتخايل أمام عينَىَّ فى اختلاطٍ شَبَحان متناقضان لِـ « نرجس » اليوم و « نرجس » أمس !

وأمضيتُ اليوم التالى على مألوف عادتى ، معتبراً ماوقع لى فى أثناء زيارتى للحانة أمس شأناً من الشؤون الجارية التى لا تستحقُّ كبيرَ اهتمام . ولكن ما كاد يَحِلّ المَساء ، وتدنو الساعةُ من الثامنة ، حتى كنتُ فى حانة « هايد بارك » فى مكان أمس ، أمامى قدحٌ من تلك « البيرة » الرديئة أكرعه على مَهل !

وألفيتها بين جماعة من الجند سُكارى ، تُغَنّى معهم أُغنِيَّة معروفة . وكانوا يناوشونها ، فتجيبهم بحركات خليعة . أما ملابسها هذه الليلة ، فكانت تماثل ملابس « الإيقوسيين » ،

وساقاها المستويتَيْن البديعتَيْن فى لونهما الخمرىّ تظهران بين فترة وأخرى كلما حَرَّكتْ قدما ، أو استدارت فى وِقْفَتها على نَغَم الموسيقى . . . كذلك كانت قبّعتُها « إيقوسية » يغلِب على الظنّ أن ضيفاً من ضيوفهما أعارها إياها ، كانت تضعها معوَجَّة فى رشاقة على رأسها الصغير ، وخصائل شعرها المتموِّج متهدِّلة على كتفيها !

وألفتنى قابعاً فى مكانى لا أتحرّك ، فابتسمتْ ، وحيّتْنى على البعد تحيَّةً عابرة ، ثم تابعتْ غناءها وعربدتَها مع رفاقها الجنود . ورأيت البعضَ يجتذبها ويقبِّلها ، فلا تتمنَّع ولا تردّ يداً ، تتصايح فى طَرَب ، وقدح الجِعَة فى يُمناها تلوِّح به .

وبعد طول انتظار رأيتها تتجه نحوى ، وكانت تسير متمهِّلة ، وقبّعتها « الإيقوسية » منحرفة على جبينها تكاد تنزلق عنه ... أقبلتْ إلى ، فجلستْ على طرَف المنضدة بجوار الأقداح الأربعة التى فرَغتُ منها ، ووضعتْ رِجْلا على رِجل ، وقالت فى لهجة لا تخلو من دُعابة :

لقد أصبحتَ من رُوّاد الحانة !

فاضطجعتُ على مَقعَدى ، وأخذتُ أنفُث دخان لِفافتى ،

وأشمخ بأنفى ، كأنى أمير من طغاة العصر القديم ، وأجبتُها بقولى :

أيسوءكِ هذا ؟

— بالعكس . . . أهلًا وسهلًا !

ورأيتها تنزل عن المِنْضدة ، وتقترب منى ، فما شككتُ أنها ستجلس على ركبتى كما فعلتْ أمس . ولكنها توقَّفت فجأة ، وأخذتْ تُسَوّى ثوبها ، أو فى الحق تتصنَّع تَسْوِيَتَه . ودارت دورةً حولى فى خطوات بين إقدام وإحجام ، ثم إذا بها تخطف طربوشى ، وتلبَسه بدل القبعة « الإيقوسية » ، واندفعتْ تضحك ، وهى تتثنّى فى مِشْيتها . . . وعلى الرغم من ذلك المَرَح الظاهر ، الذى يصبُغ حركاتها ، كنتُ أُحِسُّ أنها تكتم فى دخيلة نفسها شيئاً ، شيئاً يُقْلقها ويَشْغَلها . . .

وعادتْ إلى المنضدة ، وجلستْ على طَرَفها ، ومضتْ تهُزّ قدميها ، فقلت لها وما زلتُ مضطجعاً فى مَقعَدى :

أَلكِ فى بضع كؤوس من الشمپانيا ؟

فبادرتنى بإشارة رَفْض رائعة ، وقالت :

كلا . . .

— إذن . . . . ! ؟

— فنجان قهوة !

فانفجرتُ ضاحكا بالرغم منى . أما هى فأجابتْ :

أليس لى الحقّ فى أن أطلب فنجان قهوة ؟

— طبعاً . . .

— خصوصاً بعد احتسائى أربعة أقداح من « البيرة » ، وأربعة من « الويسكى » !

— تريدين أن تُفِيق . . . ولا سيما لأنكِ معى !

فبوغِتَتْ ، إذْ شَعُرت بأنى قد أَصبتُ حقيقةً تُخْفيها فى نفسها ، ولكنها تجلَّدتْ ، وصاحت بـ « الجرسون » قائلةً :

زجاجة شمپانيا فى الحال !

وأخذتْ تشرب الكأس إثْر الكأس ، وهى ترسل الضَّحكات متواصلة . فأمسكتُ بيدها ، وجعلتُ أُلاطِفُها ، وأُدقق النظر فيها . ولا أدرى ما الذى جعلنى أُفكر هذه اللحظةَ فى يدها القديمة ، يدِ « نرجس » منذ خمسة أعوام ، وأُوازِنُ بين اليدين . . .

وسمعتها تقول :

أتُعْجبك يدى ؟

— يا لها من يدٍ رَخْصَةٍ ناضرة . . .

ورفعتُ بصرى إِليها ، وجعلتُ أُكَرّر جملتى ، وأنا أتنَغَّمُ

(٧)

بألفاظى ، وأترنّم بها ، والابتسامة ذاتُ المعانى المستترة تتلاعب على فمى . وأدركتُ أنها فَطِنَتْ إلى ما أرمي إليه . فقالتْ متباطئةً وقد أسبلتْ جفنَيْها :

لماذا لا تُقبّلُها كأمس ؟

فصمتُّ برهة ، ثم وضعتُ يَدَها على المِنْضدة فى هدوء ، وقلت :

حقًّا لا أدرى لماذا !

وجعلتُ أرنو إلى فمها الدقيق الفاتن ، وأنا أهيِّئُ نفسى لاقتحامه ، أريد أن أتناوله بين أسنانى ، لا لاقبّلَه ، بل لاشبعَه تمزيقا !

وأدركتْ على التوّ ما يجول بخاطرى ، فَأَعْجَلَتْنِى قائلةً :

إياكَ أن تفعل !

— لماذا ؟

— لأنى لا أريد !

— ولماذا تسمحين لرفاقك «الحاكيين» بما تمنعيننى منه ؟ وكيف ؟

— هذا شأنى !

— وإذا اغتصبتُ القبلةَ اغتصابا ؟

— خاطرتَ بحياتِكَ !

قالت ذلك ، وقد تَحَفَّزَتْ كالنَّمِرَةِ تحمى نفسها . ورأيتُ جماعةً من الجند وقد رابهم حديثُنا ، فأرهفوا السمعَ لنا ،

وشدَّدوا الرقابة عليـا ، وأخذوا يرمونني بقنـابلَ من عيونهم الملتهبة . فقلت لـ « نرجس » وأنا أتضاحك :

وهل تظنين أنى أقبِّل فضلاتِ هؤلاء . . . ؟ رحم الله أيام زمان !

وما كدتُ أُتمّ جملتى ، حتى وجدتُها قد وثبتْ عن المِنْضَدة ، ووقفتْ وِقفةَ صُلْبة ، والشرر يتطاير من عينيها . ثم صاحتْ منادِيةً :

تومى !

ورأيتُ ماردًا إنجليزيا قد نهض من بين الحَفْل . . . وفى خُطْوتين جبّارتين كان أمامها ، فأشارت إلىّ قائلةً له :

أَلْقِه فى الخارج . . .

وقبل أن أستعدَّ للمقاومة ، وجدتُ نفسى فى طَرْفَةِ عين مُلْقًى على الرصيف ، أتحسَّسُ الموضعَ الذى يؤلمنى من جسدى . . .

وقمتُ وأنا معتزمٌ العودةَ إلى الحانة ، للانتقام لنفسى . ولكنّ يداً امتدتْ إلىَّ ، وصوتاً قال لى :

إلى أين . . . كن عاقلاً يا أفندى !

فإذا هو شخص من « أولاد البلد » تبيَّن لى من لهجته الإخلاصُ والنُّصْح . فأخذ بيدى ، وسار بى حتى آخر الشارع ، وهو يذكِّرنى بالأحكام العُرفيَّة وسيفها المُصْلَتِ على رقاب الناس .

وفضَّلتُ أن أعود إلى المنزل مترجِّلا . وكنت فى أثناء الطريق أُفكِّر فى وسيلة للانتقام من « نرجس » ورفيقها العملاق .

وكان رأسى كأتون يتلهّب ، بالرغم مما كان يهُبّ على وجهى من نسيم الليل البارد . . .

وولَجْتُ بابَ البيت ، وما كدتُ أخطو خَطوتَيْن فى فِناء الدار حتى رأيتها . . . رأيتها أمامى ، كانتْ هى بعينها حقيقةً لا خيالا ، تتتابع أنفاسُها فى جَهد ومشقة . خيوط من العَرَق تسبَح على وجهها ، وعيون مضطربة ناطقةٌ بالألم والفزع . . .

وقفتُ أمامها أَغلِى من الغضب ، متأهِّباً للانقضاض عليها . ورأيتها تتقدَّم منى فى خُطاً وئيدة ، وهى مُتَخَاضِعَة كـكلب ذليل يحاول استرضاء صاحبه . وهبَطتْ على ركبتىَّ ، وأخذتْ تحتضنهما وتقبلهما . وسمتُ صوتَ نشيجها الحارّ يعلو رويداً . . .

وإنها لكذلك ، إذْ أخذتُ بوجهها ، فرفعته نحوى ، فتلاقت عيناى بعينيها الباكيتين ، عينيها اللتين تتمثَّل فيهما رهبةُ التكفير وطلبُ المغفرة . . .

وأحسستُ اضطرابا يُفاجئنى ، وتخاذُلا يشمَلُنى . . .

ثم وجدتُنِى أفتح لها ذراعىّ ، فارتمتْ فى أحضانى .

وكانت قبلاتٌ نَهِمَة ، وكان عناقٌ طويل !

انتظار...

أنقى . . . .

« رسالة من « سعاد » المقيمة
فى القاهرة ، المتزوجة بـ « سامح بك » ،
إلى صديقتها « سمية » المقيمة فى « باريس »
المتزوجة بـ « عادل بك » أحد رجال
السلك السياسىّ » :

القاهرة فى ١٨ من يناير سنة ١٩٢٩ م

عزيزتى سمية :

لم أكتب إليكِ منذ أمد طويل ، بعد أن كانت رسائلى متواترةً كلّ أسبوع . وهذا تقصير شديد لا أغتفره لنفسى . وها أنتِ ذِى قد منعتِ عنى رسائلَكِ ، بعد يأسكِ منى ، وأرسلتِ تسألينَ الأقاربَ والصواحب عما دهانى . وما زلتُ أحمل فى مِحفظَتِى كتابَكِ الأخير الذى أشبعْتِنى فيه تعنيفاً . . . يَحُقُّ لك يا صديقتى أن تغضبى ، ولكن لو علمتِ ما أنا فيه لعذَرْتِنى !

ها أنا ذِى أخرج من صمتى ، وأ كْشِف لكِ عن مكنون قلبى . إننى فى حاجةٍ إلى الكلام ، بعد هذا السكوت الطويل ؛ إلى الكلام مع صديقةٍ مثلكِ تفهمنى وافهمها . . .

إذاً فاسمعى :

لعلكِ تَعْجَبين إذا صارحتُكِ — بالرغم من كلّ الظواهر التى تُكذِّبُ قولى — بأن حياتى الزوجيَّةَ التى كنتِ تعتقدين أنها مثالُ السعادة والهناء ، لم تكن فى الواقع إلَّا رمز التَّعْس والشقاء !

هذا اعتراف لم أخبرْك به من قبل ، واليومَ أقصّ عليك نبأه ، إذْ جاء حِينُه :

ستةُ أعوام قضيتها مع « سامح » وأنا أشعر بفراغٍ عظيم يحيط بى ، فيخيَّل إلىّ أنى حبيسَةٌ فى قصر من القصور الخَرِبَةِ الموحِشة التى يُخَيِّم عليها الصمتُ والظلام ؛ فكنتَ أرتجف مذعورةً أبحث عن نور أُضِيء به ظلمةَ نفسى ، وعن سَلوةٍ أَشغَل بها فراغَ حياتى . . .

أراكِ الآن تنظرين إلىّ متعجبةً حائرة ، وتسائلينني فى جزع : أأسمع حقًّا هذا الكلام من صديقتى « سُعاد » الزوجة التى يحسُدها الناس جميعاً على زوجها ؟ أليس « سامح » هذا هو

الزوج الطَّيِّع العفيف اللسان ، الذى يشبه قلبُه فى نقائه وطهارته قلبَ الطفل الصافى ؟

أجل ، يا « سُمَيَّة » ، هو كذلك وأكثر من ذلك . وإنى لأَعْجَبُ من نفسى كيف لم أُحِسَّ لهذا الزوج الكامل بأوفر حبٍّ فى الوجود ؟ . . . إنه ليستحقُ منى أن يملأ قلبى كلَّه . ولكن ، وا أسفاه ! . . . كنت أشعر نحوه بفتور غريب لا أفقه له سبباً . ولا أغالى إذا قلتُ : إن ذلك الفتور كان ينقلب فى بعض الأحيان إلى شىء من الكره . يا لله ! كيف يتسنَّى لى أن أقول ذلك عن « سامح » ؟ !

وكثيراً ما رآنى صامتة منطوية على نفسى ، أنفُضُ همِّى الخفىّ ، فيُقْبِل على هادئ التبسُّم ، ويتلطَّف بى كلَّ تلطُّف ، ويسألنى عن سبب صمتى ، وعلة انقباضى ؛ فأصرخ فى وجهه : ألا يحُقُّ لى أن أصمُت برهةً من الزمن ؟ فينظر إلىّ مبهوتاً ، ثم ينصرف عنى خَجِلا . فلا ألبث أن أستدرك جفْوَتِى ، فأنهض إليه أَسْأَلُه العفو ، معتذرةً بأننى مريضة أشكو الصُّداع ، وأن حبِّى له لا يقدَّر ! . . . ثم أحتضنه وأُقبّله ؛ وأيَّةُ قبلات هذه التى أطبعها على جبينه ؟ لقد كنتُ أغتصبها من فمى اغتصاباً !

فإذا ما خلوت بنفسى ، فى حجرتى ، أطلقتُ العِنانَ لفيض الدموع ! . . .

وما رأيكِ يا « سُمَيَّة » فى أننى كنتُ أُخاصمه أياماً بلا سببٍ قطّ . . . وأشعر فى دخِيلة نفسى بلون من السعادة الوحشيَّة عندما أجده متحيِّراً مهموماً . ولشَدَّ ما حاول إرضائى فى ذلَّة وخضوع ، فلم يلق منّى إلا النُّفُورَ والإباء . لقد كانت هذه المحاولاتُ مما يُثير غيظى منه ، وسُخْطِى عليه !

فإذا حدَّثَتْنى صويحباتى عن خيانة أزواجهنّ لهنّ ، ورَوَيْنَ لى قصصهنّ فى حياتهنّ التاعسة القَلِقة ، وغَبطْنَنى على حياتى السعيدة مع زوجى ؛ الوفىّ عجِبْتُ من نفسى كيف لا أشعر بهذه السعادة التى أُحسَد عليها ؟ !

وحينَ أنفرد بزوجى أُسائله :

أحقًّا لم تخنّى يا سامح ؟

فينظر إلىّ مبهوتاً ، ويُجيب :

وهل تشكِّين فى ذلكِ يا سعاد ؟

— لم تخنى مرةً واحدة ؟ !

— ما معنى ذلك ؟ إنكِ بلا ريب تريدين إغضابى !

وأميل عليه وبى إحساس غريب غامض ، فأقول له هامسةً :

حدِّثْنى عن شىء من ماضيك !

— ماضِيّ ؟ . . .

— أجل ، ماضيكَ قبل الزواج ، وعلاقاتك بعشيقاتك . أرْوِ لى دقائق أسرارك !

فينظر إلىَّ متحيِّراً ، ويقول :

ماذا تقولين يا سعاد ؟ أنت مجنونة !

وأُطَوِّقه بذراعى ، وأقول له :

أجِبْنِى إلى ما أريد . . . لا تخش بأساً !

— ليس لى ماض أرويه لكِ . هـذا شىء لا يصح أن يتحدث به زوجان . . .

فأقوم ثائرةً ، وأَمْضى إلى غرفتى ، وأردّ بابها بشدَّةٍ علىّ .

هذا ما كان يجرى فيما مضى . . .

أما اليوم فأمرى عَجَب ! . . . أَصْغِى إلىّ كلّ إصغاء :

منذ بضعةِ أشهر بدأتُ أُنكر من « سامح » شيئاً من التغيّر ، تغيّر تزايد على تعاقُب الأيام . لاحظت عليه أولًا ميلَه الجديد إلى الموسيقى ، بعد أن عرَفته يهرُب من الحجرة التى أدير فيها «الفونغراف» ،

وأصبح يَحْضُنى على سماع « الرَّدْيو » إلى جانبه كلَّ ليلة حتى منتصف الليل ، بعد أن أَلِفْته يُغلق عليه غرفة مكتبه ، فلا يتركها إلا قُبَيْلَ الفجر ، منهوكَ القوى من بحوث قضاياه . . . ووجدته يُعنَى بملابسه ، ويدقّق فى تخيُّر القميص ورباط الرقبة اللذين يلائمان لونَ حُلَّته . ثم راح يملأ منضدة الزينة بألوان العطور والدِّهان . ولا يخرج من المنزل إلاّ كالزهرة العَبِقَة ، تملأ الجوّ حولها أَرَجا طيّبا . . . ورأيته يُطيل النظر فى عينىَّ وهو يبتسم فى غموض ، فأُحِسّ قوةً حارّة تنبعث من شَفَتيه ، حتى إذا ما اقترب منى يريد تقبيلى ، شَعَرتُ باســترخاء وتَفَتُّر ، وأغمضتُ عينىَّ فى استسلام لذيذ .

وقال لى مرةً : إنه سيتغدّى اليوم مع « رشدى بك » ابن عمه . وفى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر ، دقَّ التليفون ، وكان « رشدى بك » هو المتكلم ، فرغِب إلىّ فى أن أُبلغ زوجى بعض الشؤون . . . وسَرعان ما علمت أن « سامِح » كذَب علىّ . . . يا لله ! أول كذبة أخذتُها عليه ، فى حياتنا الزوجيّة . فكأنّ أتونا حاميا قد اتّقَد دَفعةً فى قلبى . وقضيتُ الوقت أنتظره ، وأنا أروح وأجىء فى الرّدْهة كالنَّمِرَة الهائجة . وفى الساعة السابعة حضر ، دخل

يُغَنِّى ويهُزُّ سلسلةَ ساعته ، وما كاد يخطو بضعَ خطوات ، حتى برزتُ له وجهاً لوجه ، وقلتُ :

لم تتغدّ مع « رشدى بك » اليوم . . . لا تحاول أن تنكر !

فنظر إلىّ برهةً نظرة فاحصة ، ثم اندفع يُقهقه . فأمسكتُ بيده ، وشددتُ عليها ، وقلتُ :

كيف تجرؤ أن تكذبَ على ، وتخونَ ثقتى بك ؟

فخفّف من ضَحِكه ، وهو ما برح ينظر إلىّ نظراتِه العميقة ، المفعمةَ بالإحساسات الملتهبة . وقال فى هدوء :

يا لله . . . يدكِ باردة !

— أخبرنى : أين كنت ؟

— عند صديق لا تعرفينه !

— سَمِّهِ لى . . .

— ما دمتِ لا تعرفينه ، فلك أن تسمِّيهِ بما شئتِ !

— أنتَ وَغْد . . .

— بدأنا نتشاجر الآن حقّا !

— لماذا كذَبتَ علىّ . . . أجب !

— ولمَ تقولين : « أجب » ؟ . . . مع أنى سأجيب بالطبع . . .

— كذاب ، منافق ، خائن . . . . .

— أحقًّا أنا كذلك ؟ !

— وأكثر من ذلك !

— شكراً . . .

— أجب . . . لماذا كذَبتَ علىّ ؟

— لم أكذب عليكِ مطلقا . كان فى نيتى أن أتناولَ الغَداء مع « رشدى بك » فغيرتُ رأيى . وذهبتُ عند غيره . . . أليس المرء حرًّا فيما يفعل ؟

— وقد شربتَ معها كثيراً من الشمپانيا . . .

— إن حاسَّة الشم عندكِ يا سعاد أصبحتْ تفوق حاسَّة الشمّ عند القِطط !

— كفى يا خائن . . . سأريكَ ! . . . سترى !

واندفعتُ أضربه على صدره بكلتا يدىّ ، حتى انتثرتْ أزرار صِدَارِه ، وجذبتُ سلسلة ساعته فرميتُها . وكفتُ

أضرب الأرض شاتمة صائحة ، وهو لم يحرك فى أثناء ذلك كلّه ساكناً . . . بل مضى يبتسم ، وتركنى أفعلُ ما أريد .

وبغتةً أمسكنى بعُنف ، وأخذ يحدّق فىّ بنظره القوىّ ، وقال متمتماً :

ما أروعَكِ فى غضبِكِ يا سعاد ! . . . دعِينِى أتأملُكِ ! . . .

ثم أقبلَ علىّ يقبّلنى فى تلهُّف واهتياج . . . يقبّلنى فى عنقى ، فى عينى ، فى فمى ، فى كل موضع تقع عليه شفتاه ! . . . يا لله ! شدّ ما كانتْ شهيّةً هذه القبلات العنيفة ، هيهات أن أستطيعَ وصفَ وَقْعِها فى نفسى !

. . . . . وكرّتِ الأيام ، وازدادتْ حياة « سامح » غموضاً ، وأصبح لغزاً أعيانى أن أصل إلى حلّه . ولم يكن عنده من جوابٍ على حَيرتى ، سوى ابتسامتهِ الغريبة السائحة !

وحدث مرة ، ونحن جالسان ندخّن ، أن باغتُّهُ بقولى :

سامح . . . إنى سأخونك !

فنظر إلىّ مبتسما ، وقال :

تُحْسِنينَ صُنْعاً . . .

— أقسم بالله لَاخونَنَّكَ !

— وما الذى يمنعكِ من ذلك ؟

— لا يستطيع أن يمنعَنى أحـد ... أصغِ إلىّ ، إن لى عشيقاً !

— حسنا ...

— وإنى أعبده ..

— ألاحظ ذلك !

— ما رأيُكَ ؟

— الطبيعة لا تنافى وجودَ العشّاق !

— أهذا كل ما عندكَ ؟

— نعم ...

— ألا تريد أن تعرِفَ اسمه ؟

— كلا .

— لأنكَ تغار منه ؟

—

— بل لأننى أعرفه !

— أحقًّا . . . ومن هو ؟

— ما دمنا نعرفه نحن معا ، فلا داعى لذكر اسمه

— أقسم بالله إنك متضايق !

— أتظنين ذلك ؟

— بل أتيقَّن . . .

— إذاً أنا متضايق !

— . . . وسأخرج الليلةَ مع عشيقى !

— فى ضوء القمر ؟

— وفى زورق يمخُر بنا عُبابَ النيل . . .

— ومعكما عازِف ، يضرب على العود !

— وسنحتسى من الشمبانيا ما نشاء . . .

— نزهةٌ تذكِّرنى بأيام الرشيد !

واحتوانا الصمتُ برهة . . .

ثم قام « سامح » إلى « التليفون » ، وسمعته يقول :

« أعِدَّ لنا زورقاً ممتازاً ، أمام « سميراميس » وأحضرْ معك « زين الدين » العوّاد ، واشتر بضع زجاجات من الشمبانيا الفاخرة . . . سنحضر فى الساعة التاسعة »

وقمت إليه ، وأنا مهتاجة ، أقول :

ماذا تعنى بهذا ؟

فوضع سمّاعة « التليفون » فى هدوء ، واقترب منى ، ثم أخذ وَجْنَتَىَّ بين كَفَّيْه ، وحدّق فىّ طويلا بعينيه المتّقِدَتين ، ثم قبّلنى قبلة عميقــة تجمَّعت فيهـا لذةُ الحياة على اختلافِ ألوانها . . .

. . . . . وفى الساعة التـاسعة مَساء ، رافقته إلى « سميراميس » ، حيث ركبنا الزورق ، وأمضينا وقتاً من أطيب الأوقات . . .

والآن يا صديقتى لعلكِ ، بعد أن أطلعتُكِ على الجانب المهمّ من أسرار حياتى الحاضرة ، تريدين أن تسألينى :

ما الذى تشعرين به اليوم لـ « سامح » يا « سعاد » ؟

(٨)

— ١١٤ —

وهنا أقف حائرةً لا أجد من جواب ، بيد أنى أعترف لكِ بأن هذا الزوجَ الغامض قد أصبح اليومَ يشغَلُ أكبرَ جانبٍ فى حياتى ! . . .

وختاماً أُهدى إليكِ قبلاتى الحارة ؟

المخلصة

سمار

أركان الوضوء

أركان الوضوء

فى أثناء دراستى بالمدرسة الابتدائية ، عرَفتُ من زملائى فى الفصل طالباً اسمه : « الزَّنكلونى » يُشْبِه فى حَجْمه وهدوئه الفيلَ الأليف . وكنّا نُحِبّه على الرغم من غباوته التى أصبحتْ مضرِبَ المَثَل بيننا . وكان المسكينُ يبـــذُل قُصارَى جُهده لاستذكار دروسه ، ويقضى من الليل شَطْراً كبيراً أمام كُرّاساته وكُتُبه ، فإذا ما أصبح لم يجدْ فى رأسه من شىء .

وتَعَوّد « الشيخ بركات » أستاذُ الديانة أن يفتتحَ الحِصّةَ دائماً بهذا السؤال ، يُوَجّهُه إليه فى غير رحمة :

ما هى أركان الوضوء يا زنكلونى ؟

فيقفُ « الزنكلونى » فاغراً فاه ، كأنه تِمثالٌ من حجر ، فَيُعَقِّب الأستاذُ على سؤالهِ السابقِ بقوله :

صفر يا زنكلونى ! . . . عيش حافّ يا زنكلونى ! . . . غروب خميس يا زنكلونى ! . . .

وكنا نشهدُ هذه المأساةَ المضحكة ، تتكرَّر فى كلِّ حصَّة لـ « الشيخ بركات » . فصار « الزنكلونى » لا يَحْظَى بمشاركتنا فى الغَدَاء على مائدة الطعام إلا مرةً واحدةً فى الأسبوع كلِّه أومرتين . أمَّا بقيَّة أيام الأسبوع ، فقد أَلِفْنَا أن نراه مُبْعَداً بجوار الحائط فى قاعة الأكل ، يُحَمْلِق فينا بعَيْنَيْه الضيِّقتَيْن فى تبلُّد ، ويَقْضَم من الرغيف قَضْماً هادئاً ، كأنه لا يَعنيه ما يَلقاه من حِرْمان . ثم يبعثُ إلينا فى الحينِ بعد الحينِ بابتسامته البلهاء . وقد نلقى إليه البلحَ الابريمى والبندق ، فيَلْقَفُه ويَزْدَرِدُه بِنَهَم !

واستمرَّ الحال على ذلك ، و « أركانُ الوضوء » تَسُدُّ على صديقنا « الزنكلونى » المنافذ ، وتصبّ عليه جَامَ الحِرْمان . ولكنها مع هذا كلِّه لم تستطعْ أن تَغْزُوَ بَدانَتَه ، بل لقد راح جسمُه الضَّخْم ينمو ويزداد !

وذاتَ يوم سأله الأُستاذُ سؤالَه المعهود ، ورَصَّع الدَّفترَ بالصِّفر العظيم ، كما كان يفعل من قبل ، ونَقَشَ اسمه الكريمَ فى ورقة « العيش الحافّ » . ثم وقف قُبالَتَه يتأمَّله طويلا ، قائلا :

أَخبرنى يا زنكلونى ... ما الذى تعرفه إذاً ؟ أىُّ شىء تقدِر أن تُجيدَه فى هذه الحياة ؟

فهرش « الزنكلونى » رأسَه هَرْشاً متواصِلاً ، بيد أنه ظلَّ صامتاً فاغِراً فاه ... ووقف تلميـذٌ من خبثاء الفصل يقول للأستاذ بِجُرْأة :

يعرف أن يغنّى يافندى ... صوته حلو !

وكان أستاذُ الديانة ، على صلابته ، رجلاً متسامحاً ، يَطرَبُ للنكتة ؛ وكثيراً ما اقتطعَ من الدروس وقتاً يَرْوى لنا فيه حوادثَ فَكِهَةً جرتْ له . فقال لـ « الزنكلونى » على الفَوْر :

أصحيح هذا يا زنكلونى ؟ ... أتعرف أن تُغَنّى ؟ ...

فأجبنا كلُّنا عن « الزنكلونى » فى صوتٍ واحد :

صحيح يافندى يعرف أن يُغَنّى ...

وصدَّق « الزنكلونى » كلامَنا ، فجلس ، وأخرج « جزء تبارك » وتَهَيَّأَ للتجويد ، فشَمِلَ الفصلَ كلَّه صمتٌ عميق !

وانطلق « الزنكلونى » يرتِّل ، فكأن قنبلةً قد انفجرتْ وتطايَرَتْ شظاياها ، فاندفَعْنا كلُّنا ضاحكين ... وأدركَ الأستاذُ النكتةَ ، فابتسم ؛ ثم رأيناه يُخْفِى وجهَه فى مِنْدِيلِه . أما « الزنكلونى » فقد مضى فى تجويده ، يزداد تحمُّسا . فتقدّم منه الأستاذُ قائلاً له :

شاطر يا زنكلونى . . . عشرة على عشرة يا زنكلونى ! . . .

. . . . . واستردّ « الزنكلونى » مَجْلِسَه بيننا على مائدة الغَدَاء ، وفارق موقِفَه الذَّلِيلَ بجوار الحائط . وكان فى أثناء تناوُلِهِ الطعامَ يُشير إلى المعاقَبين بـ « العيش الحافّ » إشاراتِ سخرية ، ويتغامَزُ عليهم فى شماتة ، ويقذف لهمُ البلحَ الأبريمى وهو يضحكُ مُقَهْقِها !

ومنذ ذلك الحين أصبح « الزنكلونى » أولَ زملائه فى الديانة ، إذْ كان ينال دائماً الدرجةَ العُلْيا . . . . . .

وبينما كان « الشيخ بركات » يوماً يَمْتَحِنُ بعضاً منّا ، إذْ دخل الفصلَ ناظرُ المدرسة ، ووقف يستمع ويتفقَّد التلاميذ . ثم تَصَفَّح دَفْتَرَ الأستاذ ، فاسترعَى نَظَرَه ما حازه « الزنكلونى » من درجات الشرف والتقدّم . فَسُرَّ الناظرُ به وناداه :

محمد الزنكلونى !

فتحرَّكَ جِرْمُ الفيلِ الأليفِ بجوار قِطْره ، واكفهرَّ وجه « الشيخ بركات » وأخذ يمسَحُ العرق المتصبِّبَ من جبينه .

وقال الناظرُ لـ « الزنكلونى » :

أتعرف يا شاطر أن تذكر لنا : ما هى أركان الوضوء ؟

ونظر بعضُنا إلى بعض نظراتِ دَهْشَةٍ وتساؤل ، وقد تسارعتْ نَبَضَاتُ قلوبنا ، وغَشِيَ الفصلَ سكونٌ مُطْبِق . ولم تتحرّك شفتا « الزنكلونى » بلفْظ ، فَحَسِبَ الناظرُ أن التلميذ لم يسمَعْه ، فأعاد سؤالَه . . .

وسُرْعانَ ما رأينا « الزنكلونى » يجلس ، فيُخرج « جزء تبارك » من القِمَطر ، ويبدأ فى الترتيل بصوته العالى الكريه !

وأدار الناظرُ وجهَه إلى « الشيخ بركات » فوجده ممتقِعَ اللون ، يحاول عبثاً أن يتغلَّبَ على ما فيه من اضطراب . . .

وسمعنا الناظر يقول :

كفى . . . صفر . . . عيش حافّ يازنكلونى !

وبعد أيام قليلة ، جاءنا أستاذٌ آخرُ للديانة . . .

واحتلَّ « الزنكلونى » — عوداً على بدء — مكانَه القديم بجوارِ الحائط فى قاعة المائدة ، وقَنِع بالرغيف الحافّ ، وبما يتصدَّق به الزُّمَلاء عليه من البلح والبندق !

ولكنه لم يحاولْ مرةً أن يفهمَ سرَّ هذا الإنقلاب . . . !

عزرائيل

عَزـ ـيـ ـرية

١

فى قرية « النَّعامِنَة » من قُرى مديرية « الدَّقَهْلِيَّة » يسكن « الشيخ غُنيم » المقرئ والحانوتى ؛ رجل صَمُوت ، ضامر الجسم ، ذو عينين براقتيْن ، ووجهٍ شاحبٍ طويل تَغْشاه التجاعيد .

مضى عليه الآن أربعونَ عاماً لا يعرف له صناعةً غير الموت والأموات ؛ فتراه قارئاً على رأس مُحْتَضَر يسهِّل للروح طريقَ خلاصها ، أو قائماً بجوار مَيْت يطلب له الرحمة ، أو غاديا رائحا بين الدُّور والمقابر يُغَسِّل هذا ويدفِن ذاك . وقد أكسبتْه هذه المهنة سِحْنةَ الموتى ؛ فنظراته جافة جامدة ليس فيها حياة ، وحركاته كحركات الهياكل العَظْمِيَّة تثير الرهبةَ فى القلوب ، فكأنه ميت يعاشر الأحياء !

يدخل على المريض متمهِّلا يتوكَّأُ على عصاهُ الطويلة ، ويجلس متربعاً فى هدوء بجوار رأسه ، ثم يُخرج المِسْبَحَة ويبدأ يقرأ ؛ فإذا بالمريض قد تخاذلتْ قُواه ، واستيقن قربَ ساعته ، ولا يلبَثُ

أن يُمْسِيَ جثةً هامدة يقلِّبها « الشيخ غنيم » بين يديه كما يقلِّب الجزارُ ذبيحته ؛ فإن سار بجوار الأصحَّاء ، نشر الرعبَ بينهم ، فغشِيَتهم سحابةٌ من الوجوم ، وجعلوا يفكرون فى منيَّتهم الدانية !

ويسكن فى القرية نفسِها فتًى من الفلاحين يُدعى « عمَّار » قامته مديدة ، وجسمُه صُلْب ممتلئ ، كأنه ثور عَتِيّ . له رقبةٌ غليظة كجذع الشجرة العتيقة ، بقفا عريضٍ مفرطح يلمَع فى وَهَج الشمس كلَوْح الخشب المصقول . . . لا يعرِف من الحياة إلا وجهَها الضاحك . ولا تفارق مُحَيَّاه بشاشَتُه الساذَجَة ، حتى فى أشقِّ ساعاته عملا . أما أوقات راحته فيقضيها على شاطئ الترعة ، يؤانِس الناس بأحاديثه الصبيانية ، ويُطربهم بقهقهاته العالية . . . أكُول لا يهدأ فكّاه لحظة عن الحركة ، فتارة تراه يَقْضَمُ من كوز ذُرَةٍ مَشْوِيّ ، وطورا تجده يُقَصِّص قرون الفول الأخضر يملأ بها فمَه . ومرةً أخرى تشاهده يلتقط « السّريس » والحُلْبَة من بين الزروع ؛ فكأنه سائمة تهيم على وجهها ، ترعَى ما تجده أمامها . . .

والفتى « عَمَّار » يكاد يكون الشخص الوحيد الذى لا يرهب « الشيخ غُنيم » ؛ فقد اطمأنَّ إليه ، وخصه بوافر

محبته وإخلاصه . وكان الناس يَرونهما سائرين جنباً إلى جنب ، الأول فى ضموره وشُحوبه ووُجومه ، والثانى فى ضخامته وإشراقه وثرثرته ، فيتهامسون متعجِّبين : سبحانَ من جمع بين الضدين : مَلَكِ الموت ومَلَكِ الحياة ! وتوثقتْ صداقةُ الشيخ والفتى على مَرِّ الأيام ، حتى أصبحا مَضْرِبَ الأمثال فى المودَّة والوفاء .

وكان « عَمَّار » لا يعرف فى حياته المرض ، ولم يَذكرْ أنه شعَر بانحراف صحته منذُ حداثة سنّه ، وهو يهزأُ بالمرضى ، ويسميهم : « البهوات المُتْرَفين » ، فكان لا يفكر فى شىء اسمه الموت ، بل يكره الموتى وسيرتَهم ، ولا يزور المقابرَ مطلقاً . وكان حديثُه مع صديقه « الشيخ غنيم » لا يتناولُ شأناً من شؤون المرض والموت . والشيخُ لا يُخرج الكلمةَ من فيه إلا بشِقِّ النفس ؛ فعمله دائماً منصرِف إلى الإنصات لنوادر « عَمَّار » الظريفة ، والابتهاج بضحكاته المرِحة . وما أحوجَ الشيخَ لمثل هذه النوادر والضحكات ، وهو الذى يعيش بين الدموع ، ولا يَطرُق سمْعَه غيرُ ألحان النَّدْبِ والبكاء !

٢

عاد « عَمَّار » ذاتَ يوم إلى داره وقد شعَر لأول مرة فى حياته بِثِقَلِ رأسه ، وما كاد يعتلى ظَهر الفرن ، ويُعِدُّ عُدَّتَه للنوم حتى أصابته قُشَعْرِيرَة شديدة ، أقلقت مَضْجَعَه طولَ الليل . فحار فى أمرها، وعجَز عن التغلّب عليها . وفى غفوة محمومة رأى شَبَحاً هزيلاً ، كأنه عظام عاريةٌ من اللحم لا تستُرها ثياب ؛ وإذا بالشَّبَح يدخل الدار متمهِّلاً وهو قابض على عصاً معقوفة ، ويذهب من فَوره إلى مكانٍ بجوار رأس « عمَّار » ، فيعُدُّ على مِسْبَحَته بعض سور قرآنية ، يرتِّلُها بصوت يشبه صوت الندَّابات . وكانت تنبعث من عينَى الشَّبَح نارٌ حامية تنصبُّ على رأس المريض فتُحرِقه . . . وأمضى « عَمَّار » ليلتَه على أسوإ حال ، فريسةً للحمى والهمِّ والقلق .

وفى الصباح قام إلى الغيط متخاذلا ، مطأطِىءَ الرأس ، يفكر فى حالته . وقضى يوماً يَعمل فى أرضه عمل البهائم . ثم عاد إلى داره منهوكَ القُوى من شدة التعب ، وأحكم إقفال الباب ؛ ثم انسطح على ظهر الفرن ، ونام نوما عميقاً لم يَصْحُ منه إلَّا فى الضَّحْوة العالية . وشعُرَ بالنشاط يَدِب فى جسمه ، وبالبِشر

يَغْمُرُ نفسَه ، فذهب إلى عمله ، وجعل — كسابق عهده — يأكل ويتفكّه ، ويضحك ويُغَنِّي ، ويَروى الأخبارَ والنوادر .

وفى العصر — عند عودته إلى داره — قابل فى الطريق صديقَه «الشيخ غنيم» ، يسير متمهِّلاً على جسر التُّرعة ، بعصاهُ الطويلةِ المعقوفة ، ملتحفاً عَباءَتَه السوداء ، لا يظهر منه إلّا فوتان صغيرتان مُقْفِرَتان ، ينبعث من أعماقهما بَصِيصٌ شحيح . فَسَرَتْ فى جسم « عمّار » رِعْشَةٌ لم يَدْرِ مَأْتَاها ، ولكنه اقترب من صديقه ، وحيّاه بابتسامة مُكْرَهَة ؛ وحاول عبثاً أن يُؤنِسَه بطريف أخباره . وكان يشعر فى أثناء سيره بضيقِ تنفُّسِه ، كأن على كَتفيه حِمْلاً ثقيلا ، فلم يستطع إتمامَ نزهته معه ؛ واعتلّ عليه بمختلِف العِلَل حتى فرَّ هارباً منه !

ودخل القريةَ وقد سبقه إليها الظلام ، فسار في طريقه بخُطًى فسيحة ، يريد الوصول إلى داره فى أقرب وقت ، محاولاً تسكينَ خاطره ، واستعادةَ جأشه . وطرق سمعَه فجأةً خَفْقُ أقدام تضرِب الأرض كضرب حوافر الغنم ، مصحوبٌ بدوِيٍّ شديد كدَوِيّ الزوابع . فَخُيِّل إليه أن «الشيخ غنيم» يَقْتَصُّ أثره ... وكان الظَّلامُ قد تكاثف دونه ، والصمت الرهيب يكتنفه ؛ فانطلق مسرعاً

نحو داره يَلْهَث . ودخل الدارَ فى عجلة وذُعْر ، وأحكمَ إقفال الباب خَلْفَه . ولكنّ عينَىْ « الشيخ غنيم » ، هاتَيْن الفجوتَيْن المُقْفِرَتَيْن فى بصيصهما الشحيح ، تراءتا له خلف كُوَّةِ غرفته . . . فأخذ عباءته وكوَّرَها ، وسدَّ بها الكُوَّة من فوره . وقد تزايد ضيقُ تنفُّسه ، واشتدتْ وطأة الحِمْلِ على صدره ، فصرخ مهتاجاً ، وهو يتلمَّس الهواء لِرئتَيْه :

ماذا يريد منى هذا الرجل ؟ . . . ماذا يريد . . . ؟

٣

ومرت الأيامُ تِلْوَ الأيام ، و « عمَّار » يُرى يوماً مُشْرِقَ النَّفْس يزهو صحةً ونشاطاً ، ويوماً كاسفَ الوجه شاحبَه ، يَتقَسَّمُه الهمُّ والخِذلان . ولم يكن يُشاهِدُ « الشيخَ غنيم » إلاّ فى أوقات متباعدة ، على خلاف عادته ؛ فيشْعُرُ وهو فى صُحبته بقَلَقَ شديد . وتحوَّل هذا القلق إلى كُرْهٍ للشيخ لم يعرف له علَّة ، كره عجيب كان يُسَمِّم دمه ، ويَغُلُّ حياته بسلسلة من الهواجس المخيفة . وتنكَّرَتْ له صورةُ الشيخ ، وأصبحت من بشاعتها لا يُطيق أن يرفعَ إليها بصرَه !

وهكذا فَتَرَتْ عَلائقُ الصحبة بين « عمّار » و « الشيخ غنيم » وقل تلاقيهما يوماً بعد يوم . وما زالا كذلك حتى حلّ الوقتُ الذى تقطّعتْ فيه بينهما أواصرُ الودّ .

وعاودت « عمّار » الحمّى يوماً ، فانقلب إلى داره متخاذِلاً مُصَدَّعَ الرأس مهموماً . وراح يفكر فى أمر منيّته العاجلة ... وكان يتخايل له وهو فى غيبوبة الحمّى أن « الشيخ غنيم » قد أقبل عليه يُغَسِّله ويكَفّنه ، ويُعِدّه للدفن . فيتفزّع صارخاً من أعماق قلبه ، ويمضى يَلعنُ الشيخَ ويطردُه من منزله !

وبينما كان يبحث مرة فى صُندوقه عن عباءته القديمة ليُغَطّىَ بها جسمَه المقرور ، إذْ عثر على « طاقيّة » من الصوف كانت لـ « الشيخ غنيم » ، فأهداها إلى « عمّار » أيامَ الصفاء . فأسرع بانتزاعها من بين ملابسه ، وأخذ يقلّبها فى يديه بحركات عَصَبِيّة . ولمعت فكرةٌ فى رأسه أشرقتْ لها أساريرُ وجهه ، فقام على الفور يُشعل النار فى « الطاقيّة » . ثم وقف يَرْقبُها — وهى تشتعل — بسرور عظيم !

ومنذُ ذلك الحين ، كان كلما شعَر بعودة الحمّى إليه ، جمع ورقاً عريضاً ، ورسم عليه صوراً آدميّةً متشابهة ؛ ثم لا يلبث أن

يَقُصَّها ويُشعلَ النار فيها واقفاً يرقبها فى تَشَفٍّ وارتياح ، بعينين ينبعث منهما لهيبُ الحقد وحبُّ الانتقام ، متمتماً بصوت خافت :

إلى النار يا شيخ غنيم ! إلى النار وبئس المصير !

وما يزال كذلك حتى يستحيل الورقُ أمامه رماداً تَذْرُوه الرياح ... ومن ثَم يعتلى ظهر الفرن ، وينام ليلتَه ملءَ عينَيْه ، هانئاً ناعمَ الأحلام !

وخرج « عمار » من داره يوماً قاصداً قهوة « المحطة » ليدخّن « تعميرة » من « الطباق » ... فرأى « الشيخ غنيم » فى الطريق بعيداً عنه ، يسير هادئاً مطمئناً موفورَ العافية . فأخذ منه الغيظ كلَّ مَأْخَذ ، وجعل يراقبه فى اهتمام ؛ ثم تناول حجراً وقذفه به فى سرعة وقوة ، فأصاب قفاه . واختفى « عمار » فى الغيط والتفت الشيخ مذعوراً ، ليري من أقدم على هذا العمل الغريب ؛ فلم ير إلَّا بعضَ أطفالٍ يلعبون على مقرَبةٍ من مكانه ، فظن أن أحدهم آذاه بلا قَصْدٍ منه .

وعاد « عمار » إلى داره رَافِهَ البال ، منبسطَ النفس ؛ وتربَّصَ من غده للشيخ فى طريقه الذى يسير فيه ، ورماه بحجرين أصاب أحدُهما كتفَه ، والآخرُ ظهرَه !

(٩)

ومَضَى « عمار » يَتوَخَّى دائماً إيذاء الشيخ بمختلِفِ الوسائل. وكان يتفنَّن فى هذا الإيذاء تفنُّناً عجيباً . . . يقضى الليل ساهراً يَرْسمُ خُطَطه ومكايده ، ويدبِّر أمرَ تنفيذها . فكم من مرةٍ وقع « الشيخُ غنيم » فى حفرة مغطَّاةٍ بالهشيم ، تبدو كأنها جزء من الطريق المسلوك . وكم من مرة شعَرَ — وهو يتوضَّأ ليلاً على حافَةِ التُّرعة — بيد مجهولة تدفعه إلى الماء تريد إغراقه . وكم من مرة هَوَى على رأسه فرعُ شجرة ضَخْم كاد يقضى عليه !

ولم يقصِر « عمار » ضرَره على الشيخ وحدَه ، بل تعدَّاه إلى منزله . فقد وجد « الشيخ غنيم » مرةً بعضَ دَجاجه وإوَزِّه مخنوقاً . ولاحظ مرة أخرى أن مجهولاً نقب الجدار وفتح ثُغْرَةً فى السقف . فكانت تمْلِكُه الدهشة ، ولا يستطيع إلا أن يَعْزُوَ هذه الأعمالَ الشيطانيّة إلى الأرواح الشِّرِّيرَة ، فيستعيذ بالله منها ، ويستعينه على دفع ضَرِّها .

٤

وكان أن استيقظ أهلُ بلدة « النعامنة » فى منتصف إحدى الليالى على صوت استغاثة لاهِفَة . . . فهبُّوا من فراشهم سِراعاً وخرجوا يَستَجْلُونَ الخبرَ ؛ فإذا بهم يَرَوْنَ ناراً تندلع ألسنتُها

من منزل « الشيخ غنيم » فتهدَّدُ بقيةَ الدُّور بشرٍ مستطير . فأخذوا يكافحونها ويحصُرُونها فى بقعة واحدة ، واستطاع القوم بعد الجَهْدِ أن يُخْمِدوا النار . ثم راحوا يتفقَّدون البيت ، فوجدوا فى كِنِّ الدَّجاج جثةً سوداء شوَّهتها الحروق . . وبينما كانوا يحاولون إخراجها من مَحْبِسِها ، سمعوا صوْتاً مُجَلْجِلاً يُصيِّح قائلا :

دعونى أتكفلْ بحَمْلِ صاحبى وحبيبى . . . دعونى أتولَّ قراءةَ السورة على رأسه . . . دعونى أقُمْ بغسله ودفنه . . . يرحمك الله يا شيخ غنيم . . . !

فالتفت الجمع فإذا بـ« عَمّار » يدخل الدار مهرولاً وهو يضرب صدره بِكِلْتَا يديه ، فأوْسَعُوا له الطريق ، وتركوا له الجثةَ ليتولى أمرها . . . وقام « عمَّار » بمُهِمَّتِهِ خير قيام ، فمدَّد الشيخَ على فراش الموت ، وقرأ على رأسه السُّوَر التى اعتاد الشيخ أن يقرأها على رءوس المحتَضَرِين والموتى . ثم غسّله وكفَّنه ، وحمله إلى القبر فوسَّده التراب ، وأحكم سدَّ القبر عليه . ولما أن تفرق الجمع عائدين إلى دورهم ، قام « عمَّار » وتمطَّى بحركة عريضة ، وتنفَّس طويلا بارتياح .

ولما لم يجد أهلُ بلدة « النعامنة » شخصاً يليق بعمل « الشيخ غنيم » غيرَ صديقه « عمار » ، قلَّدُوه إياه ، فتقبَّلَه برضًا واطمئنان ، وأخذ يُزَاوله بهمَّةٍ ونشاط . وتفرَّغَ له كلَّ تفرُّغ ، فترك الزَّرْعَ والضرْعَ ، وأقبل على الموتى يوسِّدهم التراب ، ويسُدُّ عليهم أبواب القبور . وكانت تسرى فيه نَشْوَة ابتهاج غريبة حينما يطرق سمعَه خبرُ مُحْتضَر أو ميت ، ويُحِسُّ لَذَّةً عميقة تَأْسِرُ جميعَ مشاعره عند ما يقلِّب بين يديه جُثَثَ غنائمِه ، حاسباً أنه يُضيف إلى عمره بقيةَ أعمار هؤلاء التاعسين !

ومنذ أن تقلَّد « عمار » — أو بالأحرى « الشيخ عمار » — عمله الجديد ، لحقه تغيُّر كبير ، فأخذ جسمه يَهْزُلُ ، وعيناه تغوران ، وجبهته تبرز ، واختفت ضحكاته ونوادره ، واكتسى وجهه الطويل بوجوم مخيف . وتجنَّبَ الناسَ ، وآثر الوحدة ، فهو يمشى على جسر الترعة بخطواته الجافّة المديدة ، وقامته الصُّلبة الطويلة ، مِشْيَةَ المَخَاوِفِ والأسرار .

وكان يتوكَّأُ على عصا « الشيخ غنيم » التى وَرِثَها فيما ورِث من تَرِكَتِهِ ، فإذا ما رآه الناس من بعيد أخذوا يتهامسون قائلين :

هذا هو عَزرائيل القرية . . . هذا هو قابض الأرواح !

أفديك يا روح

أفيـ ـ بروح

وصلتْ إليّ دعوةٌ من صديقَيَّ « فريد » و « عبّاس » ؛ لأقضيَ معهما بِضعةَ أيام في « فلّتهما » البديعة بـ « سيدى بشر » . وكان القيظُ بالغاً أشَدَّه في القاهرة ، فقَبِلتُ الدعوة بالرضا والسرور ، وحَزَمْتُ متاعى ، وسافرت إلى الإسكندرية . و «فريد» و «عباس» شقيقان تزوجا من شقيقَتيْن ، وهم جميعاً يعيشون فى صفو ووئام .

وصل القِطار إلى « سيدى جابر » فألفيتُ الأُسرةَ تنتظرنى على رصيف المحطة . وما إن قفزتُ من عربة القِطار ، حتى رأيتُ مخلوقاً صغيراً قد تَعَلَّقَ برَقَبتِي ، فصحتُ مُهَلِّلاً :

وأنتِ أيضاً يا « تفاحة » جئتِ تستَقْبِلِينَنِي ؟ ؟

و « تفاحة » ابنةُ صديقى « فريد » ، طفلةٌ تبلغ السابعة ، لم تقعْ عينى على أظرفَ منها وأخفّ .

أخذتُها بين ذراعيَّ أُقبِّلُها وأُلاطفها ، ثم أخرجتُ من جيبى عُلْبَةً من « الشكولاتة » كنت أعْدَدْتُها لها ، وناولتُها إياها وأنا أقول :

لقد أحضرتُ لكِ ، غير هذه ، أصنافاً شتى من الحَلْوَى واللُّعَب .

فصاحتْ « تفاحة » :

أين هى ؟

— صبراً يا صغيرتى صَبْراً . كلها موجودةٌ فى حقيبتى ، ولـكن لن تأخذيها دَفْعَـةً واحدة . . . كل يوم هديَة .

فعانَقَتْنِى ، وانطلقتُ أتحدَّثُ وإياها ، وسمعتُ « فريد » يقــول :

يظهر أنه ليس لنا حساب عندك ، كله لتفاحة ؟ !

وضحكتْ « حياة » و « أمل » زوجتا صديقىَّ ، فأسرعت وسلمتُ عليهما ، وقلت :

يا أصدقائى الأعزاء ، لا مؤاخذة . حقًّا إنى رجل قليل الذوق ، ولـكن تعرفون كلُّـكم أنى . . . .

فقاطعَتْنى « أمل » قائلةً :

نعرف أنك و « تفاحة » من أعزّ الأحباب ، وأنك فى سبيل هذا الحب تتناسانا جميعاً !

وضجّ الجَمْع مؤيدِّين هذا القول ، محتجِّين على سوء تصرُّفى . وسمعتُ « عباس » يَصيح بى :

الله ! أين حقيبتك يا « شاكر » ؟

ودرتُ بعينَىَّ أبحث عنها ، ثم تذكرتُ أنى لم أُنزلها معى ، ورأيتُ القِطار يتهادَى فى سيره ، تاركا « محطة سيدى جابر » . ونظرتْ إلىَّ « تفاحة » نظرةَ حَسْرة ويأس ، فقال لها أبوها :

لا تَخْشَىْ شيئاً ؛ سنبعث من يُحضر حقيبة « شاكر بك » فى الحال ، لن تَفْقِدى شيئاً مما أحضره لك !

وأشار إلى الخادم ، فتعلَّق بإحدى عربات القطار ، والتفتُّ إلى أصدقائى ، وقلت :

أعوذُ بالله من ضعف ذاكرتى ، حتى الحقيبة أنساها ؟ ! حقًّا لقد أصبحتُ مَضْرِبَ المثل فى النسيان . . .

فقال « عباس » :

ولكن ألاَ تعلم يا شاكر أن ضعف الذاكرة من مظاهر العبقرية ؟ ؟

فنظرتُ إليه محملقا ، وسمعت « فريد » يقول :

مؤكد . النسيان من مظاهر العبقرية !

وتركْنا المحطة ، ونحن نُناقِشُ فى النسيان والعبقرية . . .

وسمعتُ بغتة دَوِىَّ البحر واستقبَلَنى هواؤه القوىّ ، ورأيتُ السيارةَ تسير بنا فى طريق « الكورنيش » البديع . فتَنَفَّسْتُ تَنَفُّساً طويلا ، وأنا أَتلَفَّتُ حولى مُشْرِقَ الوَجْه . وسمعتُ « أمل » تقول :

اعملوا معروف ، اعتقوا « شاكر بك » من النسيان والعبقرية !

وقالت « حياة » :

فلنتكلمْ فى عبقرية البحر ، والحمامات ، والكازينو ! ! أليس كذلك ؟

فصحتُ موافِقا ، واندفَعْنا نتكلَّم فى حماس عن البحر والحمامات و « الكازينو » ، حتى وصلنا إلى « الڤيلا » .

وأدخلونى حُجْرَتى ، ووصل متاعى بعد قليل ، فأخذت أرتِّب حوائجى ، وأُغَيِّر ملابسى .

وبعد العَشاء قضينا سَهْرة لطيفة فى الشُّرْفَةِ الكبيرة ؛ نَلْعَبُ الورق ، ونستمع إلى « الرڈيو » ، ونتبادل النوادر .

* * *

وانقضتْ أيام ، وأنا أعيش مع هذه الأسرة الكريمة ، مُحَاطاً بكلِّ رعاية ، مَغْموراً بكلِّ عطف وإخلاص .

وَوَفيْتُ بعهدى لـ « تفاحة » فكنت أمنَحُها كلَّ يوم هدية صغيرة ، فتكافئنى عليها بقبلة طويلة ... ولكننى مع الأسف لم أكن أراها كثيراً ، فقد كانت تعيش مع مُرَبِّيَتِها على حِدَة ، وتَتْبَعُ نظاماً خاصا فى الدرس والرياضة والأكل .

وتوالت الأيام ... وبينما كنت مَرَّةً فى حجرتى جالساً بجوار النافذة ، أقلِّب بين يَدَىَّ الروايةَ الإنجليزيةَ التى كنتُ أُطالعها فى أوقات فراغى ، رأيتُ ورقةً صغيرة تسقُط من بين صحائفها ؛ فالتقَطْتُها ونظرتُ إليها ، فإذا مكتوبٌ فيها الجملةُ الآتية : « أنا أُحِبُّك . أفدِيك بالروح ! »

وأخذت أُدَقِّق النظر فى الورقة ، وأعيد قراءتها ، وقد غمَرَتْنى دهشة عظيمة . وكانت الجملة مكتوبةً بخط نِسْوِىٍّ رقيق ... إن الورقة قد وُضِعَتْ اليوم فقط ، فالكتابُ فى يدى منذ حضورى ، وكثيراً ما عَبِثْتُ به ، وقلَّبْتُ صفحاتِه . إذاً هناك سيدةٌ قد كتبتْ هذه الورقة ، ووضَعَتْها فى روايتى ؛ هذه بَديهَة . تلك السيدة من تكون ؟ ؟ إن الرواية لم تخرج من حجرتى ، فهى دائما على المقْعَد المُرِيح ، ولا أذكر مطلقاً أن مِنَ السيدات مَنْ زُرْنَ الأسرة ! إذاً فالسيدة من أهل البيت ... وارتجفْت ... وأخذتُ أَذْرَعُ

الغرفةَ بخُطُوَاتٍ مضطربة ، وأنا أقدحُ فكرى بَحْثاً واستقصاء . . .
وبغتةً أمسكتُ عن المسير ، ودعَكْتُ الورقةَ فى يَدِى غاضباً ورميتُها . وكنتُ فى ذلك الوقت بجوار النافذة ، فرأيتُ فى الحديقةَ صديقىَّ وزوجتيهما جالِسِينَ تحتَ المِظَلَّةِ الحمراء ، فرفعتُ صوتى قائلاً :

يا أصدقائى الأعزاء ، يمكننى أن أؤكدَ لكم أننى غيرُ أبله !

فرفعوا عيونَهم إلىَّ ، مدهوشين متسائلين . . . فقلتُ :

مؤامرة غيرُ ناجحة . دُعابَةٌ فاشلة . هذا كل ما عندى !

فأجابنى « عباس » وهو يضحك :

ربنا يشفيك !

وقضيتُ اليومَ على عادتى ، ولم أَبُحْ للأسرة بشىء . وكلما سألونى عن المؤامرة المزعومة ، وسرِّ غضبى ؛ تضاحكتُ وحوَّلتُ مَجْرَى الحديث . واعتبرتُ الموضوع مِزَاحاً لم يُصادِفْه التوفيق ، وبذلك حَسَمْتُ الأمرَ معهم . ولكننى بالرغم من ذلك كنتُ دائمَ التفكير فى هذه الجملة الساحرة ، أستعيدها لنفسى غيرَ مرة . وعند ما أكون أمامَ زوجَتَىْ

صديقَيّ ، أجدنى أُطيـــل التأمّلَ فيهما ، مفاضلا بينهما فى الجمال والرشاقة . . . .

وفى غدِ ذلك اليوم ، قصدتُ حجرتى بعد الغَداء ، وتمددتُ على المقعَد المريح ، لأَتقيلَ كما تعودتُ . . . ولمّا استيقظت تناولتُ الرواية الإنجليزية لأطالعَ فيها ، فما إن فتحتُها حتى سقطتْ منها ورقةٌ فى حجم ورقة أمس ، فأسرعتُ بالتقاطها ، فإذا مكتوبٌ فيها : « أنا أحبك ، أفْدِيكَ بالروح ! » . . . وكان خطها مماثلاً خطَّ الورقة الأولى ، فقفزتُ من المقعَد ، وقد اعتزمتُ أن أضعَ حَدًّا لهذه الألاعيب . وكانت المرآةُ فى طريق ، فرأيت خيالى فيها ، فتريَّثْتُ ، ووقفْتُ أمامها برهةً أتأملُ نفسى . ثم تَنحّيْتُ عنها بضعَ خطوات ، وما هى إلاَّ أن عدتُ إلى المِرآة ثانياً . . . .

شابٌّ قصير القامة ، نحيف الجسم . بَشَرةٌ سمراء ، ولكنها السُّمْرَة الحُلْوة . عينان صغيرتان ترسلان بريقاً يَتوَهَّج ، فيهما جاذبيَّة قويَّة . ماذا يَضيرُهما أن تكونا كعيون القِطَط كما يشاء أصدقائى أن يصفوهما ؟ ؟ الشعر مُفَلْفَل . . . وماذا يَعيب ؟ هو مرغوب فيه من الحسان : وكل هذا لا يساوى شيئاً

بجانب ما ينطلق به لسانى من ظريف الفُكاهَةِ وساحِرِ البيان !

وانقضتْ فَترةٌ أفقتُ بعدها على أثرِ جَلَبَة من سيارة عابرة .

وقصدتُ فى الحال مِنْضَدَةَ الزينة ، وأخذت أتعطَّر ، واستبدلت برباط رقبتى رِباطاً آخرَ من الصِّنْفِ الثمين . وذهبت إلى النافذة . فوقع بصرى على « أمل » ، زوجةِ صديقى « عباس » ، وكانت جالسةً على انفراد تحت المِظَلَّةِ الحمراء . ولمحتْنى ، فأشارتْ لى فى ابتسامةٍ جذَّابة أن أنزِل ، فهرولتُ إليها ، وما كدت أقتربُ منها حتى صاحتْ :

يا سلام ! ما هذه الرائحة ؟ إننا نستطيع أن نَشَمَّك على بُعْد عشرين متراً !

— وهل هى رائحة طيِّبة ؟

— بديعة جدًّا . اجلس نتسامر ، إنهم تركونا ، وذهبوا لشراء بعض الحوائج من البلد . . .

فجلستُ وقد بدا علىَّ بعضُ التهيُّب ، ثم سمعتُها تقول :

ألم تُتِمَّ بعدُ مطالعةَ روايتك ؟

— روايتى ؟ !

— نعم روايتك الإنجليزية ، هذه التى فى يدِك !

وكانت الرواية فى يدى، اصطحبتها معى دون أن أشعُر ، فقلتُ وقد أصابتنى رَجْفَة :

كلا لم أُتِمَّها بعد !

— اسمح لى أن أقول لك إنها من الروايات الشعبية .

— وهل قرأتِها ؟ خَبِّرِينى !

— كلا ، بل تصفَّحْتُها مِرَارا .

— تصفحتِها مرارا ؟ ! أين ؟

— فى حُجْرتِكَ طبعا .

— وهل أتيتِ إلى حجرتى وأنا غائبٌ عنها ؟

فأرسلتْ ضِحْكَةً ناعمة ، وقالتْ :

ألا تعلم يا صديقى أن من واجباتى مراقبةَ أعمالِ الخدَم مراقبةً تامَّة ؟ أنا خلفَهم فى كل خُطْوَة يخطونها . ولكن أأنتَ على رأيى أن الرواية من النوع الشَّعْبِىّ ؟ ؟

— صحيح ، من النوع الشعبى !

— خالية من العواطف !

— العواطف ؟ !

— أقصد طبعاً العواطفَ الغرامية .

وتتابعتْ دقاتُ قلبي ، وقلتُ في صوت ضعيف :

أيروقكِ النوعُ العاطفيّ من الروايات ؟

— جـدًّا ! . . .

وتراختْ على مَقْعَدِها، ورفعتْ يديها ، وعَقَدَتْهُما برأسها في شَكلٍ جَذّاب ، فراعني جمال ذراعَيها وما هما عليه من طراوة والْتِفَاف !

وجاءَ الخادم في هـذه اللحظة ، يدعوها إلى « التليفون » فقامتْ بعد أن ألقتْ عليّ نظرةً فاتنة . ومكثتُ برهة وأنا مشدوه ، ولـكنَّ الغبطة كانت تَشيعُ في نفسي كلِّها . ونهضتُ أسير في الحديقة مطرِقًا أفـكِّر ، أحاوِلُ أن أنتزعَ من نفسي إرادةً قوية !

* * *

وفي المَساء بعد أن تَعشَّيْنا ، قَصَدْنَا إلى حجرة « البِيَان » فَشَرِبْنَا القهوة ، ودَخنّا بضعَ لَفَائِف ، ثم خرج « عباس » وفريد وتَبِعَتْهما « أمل » ، وبَقيتُ بمفردي مع الأختِ الأُخرى « حياة » ، فأردتُ أن أخرجَ على أَثرِهم ، ولـكن « حياة » ذهبت إلى « البِيَان » وبدأتْ تَعْزف عليه ،

فرأيتُ من حُسْنِ الذَّوْقِ أن أستمع إليها . وكان اللحنُ بديعاً ، يُحَرِّكُ فى القلب أدَقَّ العواطف وأرَقَّها ، فأصغيت إصغاء مسحور ؛ مستمتعاً بِشَهِيِّ النغمات . . . وما إنِ انتهتْ « حياة » من العزْفِ حتى صحتُ متحمسا أُهَنِّئُها . فالتفتَتْ إلىَّ شاكرةً وقالتْ :

أحقًّا أعجَبَكَ اللحن ؟

— مطربٌ جدًّا !

— تَظُنُّ مَن أَلَّفَه ؟

— موسيقىّ عظيم بلا رَيْب !

— موسيقىّ عظيم ؟ !

— بالطبع !

— وإذا قلتُ لكَ إننى أنا التى ألفْتُه ؟ !

— لم يَجِبْ ظنى إذاً ! . . .

فضحكَتْ ، وضحكتُ معها . . .

ووقع فى هذه اللحظة من يَدِها مِنديلُها الحريرىّ ، فأسرعتُ والتَقَطْتُه من الأرض ، وتضوَّعَتْ منه رائحةٌ لطيفة ، رائحة

تماثِل البَنَفْسج . . . هذه الرائحة ليست غريبةً عنى مطلقاً ، فأين شممْتها ؟ ورفعتُ المِنديل إلى أنفى ، وقلت :

إنها رائحةٌ طيبة جدًّا !

— مزيج من عطر خاصّ يسمى « ليلة غرام » !

واستأذنتُ « حياة » فى التغيُّب لحظةً ، ومضيتُ مسرعاً إلى البَهْوِ ، وأخرجتُ من مِحْفظتى الورقةَ المعهودة المكتوب فيها : « أنا أحِبُّك . أَفْدِيك بالروح ! » وشَمِمْتها ، فإذا العطرُ واحد ، وأَعَدْتُ شمَّهـا مراتٍ كثيرة . . . . إن الأمرَ خَطِير ! . . .

وعدتُ إلى الحجرة ، وأنا أشعر كأنَّ غمامةً تَغْشَى عَيْنَىَّ ، وسمعتُ « حياة » تقول :

أَ أَعْجَبَكَ هذا العِطر ؟ ؟

— جدًّا !

— إنه آخر ابتكار لمحل « برنوا » الشهير ، ولقد أوصيتُ بإحضار زجاجتى من « باريس » مباشرة ، وأنا معتَزَّةٌ بها . . .

— من باريس ؟ !

— أؤكد لكَ أنكَ لن تجدَ زجاجة أخرى من هذا العطر فى مصرَ كلها !

(١٠)

— مدهش . . . إذاً هذا العطر خاصٌّ بكِ . بكِ وحدَك ؟

— بالطبع . وإنى أستعمله لمناديلى فقط .

— ولكن . . . إنما . . . . يجوز مثلا . . . . .

— ماذا ؟

— أصحيح أن هذا العطر خاص بك أنت . أنتِ وحدَك ؟ !

فنظرتْ مُحَدِّقَةً فِيَّ ، ثم ضحكتْ ضِحْكَةً ساحرة ، وقالت :

— ما لك يا شاكر بيه . . . ؟ لستَ كعادتك . . . ؟ !

— عفوا . . . أشْعُرُ بأن رأسى غيرُ موزون .

— لعلك قد أثْقَلْتَ فى شُرْب « الويسكى » ؟

— كلا . . . . وإنما . . . . الظاهر أنى دَخَّنْتُ كثيرا ، ولكن فلنعد لموضوع العِطْر ، عطر « ليلة غرام » !

فاندفعتْ تضحك وهى تقول :

أيُهِمُّكَ هذا العطر إلى هذا الحد . . . ؟ !

— لا يُهِمُّنى كثيراً . . . إنما . . .

— ربما تريد أن تُوصِىَ لك بزجاجة منه ، تُضِيفُها إلى المجموعة الفريدة التى عندك !

— المجموعة التى عندى ؟ !

— رأيتُها منذ يومَيْن ، عند ما فتحتُ دولابَ ملابسك .

— أنتِ فتحتِ دولابَ ملابسى ؟

— المعـــذرة . أنت تعـلم — بلا رَيْب — أنه يحوى بياضات المنزل !

— صحيح !

— وقد خصونى بهذا العمل دون سواى .

كنتُ أسمع كلامها وأنا أرتجف . إنها هى أيضاً تَتَرَدَّدُ على حجرتى أثناء غيابى . . . إذاً . . . هذا مدهش . . . ولكن . . .

ورفعتُ بصرى إليها ، فقابلَتْنِى عيناها الخضراوان ، وكانتا تُشِعَّان بلَمعة وهّاجة فيها فتنة وإغراء .

نَخفَضْتُ رأسى ، ثم غَضَضْتُ طرفى لحظة ، ورأيتُ نفسى أُدنِى مَقْعَدِى منها ، وقلتُ لها بلا تردد :

قرأتُ اليـومَ فى روايتى الإنجليزية التى أُطالعها خبراً لطيفاً عن تَرَاسُلِ العُشَّاق !

ووجدتُ فى نفسى الشجاعةَ لأن أُحَدِّقَ فيها بعد قولى هذا

تحديقاً له معناه . فقامتْ تتناول لِفَافَةً من عُلْبَةٍ على المِنْضَدَة وأشعلتْها وهى تبتسم ، وسمعتُها تقول :

وما هو هذا الخبر اللطيف ؟

— أيُهِمُّكِ أن تسمعيه ؟

— جدًّا !

وأرسلتْ دُخانَ لِفَافَتِها وهى تضحك ، فقلت وقد شَجَّعَنى انتصارى :

كان المحبان يضعان رسائلَهما الصغيرة فى كُتُبٍ يتبادلانها على سبيل الاستعارة . . . .

— طريقةٌ قديمة ، ولكنها ناجحة دائمًا . . . .

وألقَتْ علىَّ نظرةً خاطفة ، ثم لفَتَتْ رأسها فى تَلَطُّف ، وبدتْ منها حركةٌ رائعة وهى تُبْعِدُ اللِّفَافَةَ عن فمها . . . لم يَعُدْ للشك سبيلٌ إلى قلبى . حسبى هذه النظرة . وما تبعها من حركة وتلفُّت . إنها أفصح من مقال . . . . وشَعَرْتُ بأن قلبى يتوثَّب . . .

وفى هذه الساعة دخل علينا « فريد » زوجُها . فتملَّكْتُ نفسى ، وإذا هى تقول له :

إن « شاكربك » قد أعجبه عِطْرى الجديد ، ويرغب

أن يُزَاحِمَنِي فيه ، فأرجو أن تمنَعَه بكل ما فى وُسْعِك ، حتى لا يُوصِى لنفسه بزجاجة من « باريس » !

فتضاحكتُ ، وخرجنا . . . يا لله ! ما أبدعَ دَهَاء النساء ، وما أدَقّه وأقواه !

وأمضيتُ ليلةً هَنِيَّةً كلُّها أحلام جميلة ، كانت تتراءى لى فيها « حياة » بعطرها الفَيَّاح يَتَضَوَّع من رسائلها الغرامية ذاتِ الخفاء ، وتتَمَثَّلُ لى غِبْطَتِي بما وضح لى من سرّ هذا الحبِّ المفاجئ .

وفى الغداة فوجئتُ بخبر غريب ، وهو أن « أمل » زوجةَ « عباس » تسمح لنفسها باستعمال عطر أُختِها « حياة » . . . إذاً لقد تعقّدَت المسألة مرةً ثانية ! واستعاد الشكُّ مكانَه من نفسى . الأختان تستعملان عطرَ البَنَفْسَج ، وتدخلان حجرتى فى مَغِيبِي . وكلتاهما تتنافسان فى إظهار دلالِهما أمامى ، وتتبارَيان فى إلقاء شِبَاكِهما علىّ لاصطيادى . . . ومضى اليوم والمسألة تزداد غموضاً ، وحالتى تزداد ارتباكاً واضطراباً !

وتتابعتْ أيام اخَر والرسالةُ تصل إلىّ بانتظام عجيب ، وبالطريقة نفسِها . . . داخل الرواية الانجليزية ، وهى هى لم تتغيَّرْ ، قطعةَ ورقٍ صغيرة معطّرة بعطر البَنَفْسَج المعروف ، من « ماركة

برنوا » مكتوب عليها بالخط الصغير : « أنا أحبك . أفديك بالروح » !

ووجدتُنِي أميلُ إلى الوَحْدَة ، فكنتُ أسهرَ الليل فى غرفتى أرْقُبُ نجومه من النافذة ، شِبْهَ حالِم . . . وكثيراً ما كنتُ أتخيَّلُها « هى » قادمة تَسْتَرِقُ الخُطَا ، فأُرهف السمع لخفيف ثوبها . إنها لا شك قادمة لترتمىَ بين أحضانى . هى . هى . . ولكن ، من هى ؟ أ « حياة » هى أم « أمل » ؟ ! !

ومن العجيب أننى لم أكن أستطيع أن أُفاضل بينهما ، فكلٌّ منهما رائع الحُسْن. ولكن أَلَيْسَتَا هما زوجَتَىْ صديقٌ . . . ؟

. . . . . وبدأ ضميرى يثور علىّ ، فيعذِّبنى بوَخْزِه الحادّ . وعزمتُ على الهَرَب فى غدى : سأسافر خُلْسَةً دون أن يَشْعُرَ بى أحد ، حفظاً لكرامة الأُسْرَة . . . فإنى لأخشى عليها ، عليها « هى » ، أن يفضحَ سرَّها موقفُ الوَدَاع !

وأمضيتُ وقت الغَدَاء معهم صامتاً مهموماً ، أفكِّر فى صيغة الرسالة التى سأتركها فى حجرتى . أريد أن أُضَمِّنَها معنَيَيْن مختلفَيْن ، فإذا قرأها « الأَخَوَان » لا يفهمان منها إلا وَدَاعاً عابراً ، وإذا قَرَأَتْها « هى » فهمتْ على الفور مرماها .

ولاحظ أفراد الاسرةِ شرودَذِهْنِى ، ولكنهم لم يُضَايقونى بالأسئلة ، وحاولوا إضحاكى ، فلما لم يجدوا منى ميلاً للضحك تركونى لشأنى !

وقمتُ بعد الطعام إلى غرفتى ، وأقفلتُ مصاريع النوافذ وتمدَّدْتُ على المَقْعَد المُرِيح ، وأطبقتُ جَفْنَىَّ لتُوَاتِيَنِى الطُّمَأْنِينَة ، واستجماعُ الذهن . . . كل شىء كان مُعَدًّا ، إلا الرسالة الصغيرة التى اعتزمتُ تَرْكها قبل سفرى . كنت أفكِّرُ فى صيغتها وأنا على حالتى مُطبقُ الأجفان !

وبينما كنت على هذه الحال ، شَعَرْتُ بحركة خفيفة وراء الباب ، فأنصتُّ واجِفَ القلب . هناك شخص على مَقْرَبَةٍ من الباب ، يتردد فى الدخول . . . وحَبَسْتُ أنفاسى المضطربة وتناوَمْت . ورأيت الباب بعد حين يَنْفَتِح ، وسمعتُ حَفِيفَ ثَوْبٍ يَقْتَرِبُ من مَقْعَدى ، وبعد برهة فتحتُ عَيْنىَّ فإذا بى أرى . . . ماذا ؟ . . . « تفاحة » ممسكة بالرواية لتضع فيها ورقة صغيرة ! . . . فصحتُ :

ماذا تفعلين هنا يا « تفاحة » ؟

والتفتَت الصَّبِيَّة مُرتاعة ، ثم سارتْ إلىَّ ذليلةً خافضةَ الرأس ، وقالت :

والله العظيم ، ما عملت حاجة !

وتناولتُ الكتاب ، وأخرجتُ الورقة ، فسبَقَ عطرُها إلىّ ، وقرأت : « أنا أحبّك ، أفديك بالروح ! » . وكدتُ أخطَفُ الطفلة ، وألقِى بها من النافذة ، ووجدتُها قد تعلّقَتْ برقبتى ، وقالتْ :

انت زعلان ؟ !

فأجبتها ، ووجهى محتقِن :

لا والله فرحان خالص !

ورأيتُها على وَشْكِ البكاء ، فأجلستُها على ركبَتَىّ ، وقلتُ لها :

أيكونُ أحد قد أغراكِ بفعلِ ذلك ؟

— أبداً والله العظيم !

— إذاً أنتِ التى تكتبين الورقة ، وتضَعينَها فى الكتاب كلَّ يوم ؟

فأومأتْ برأسها : نعم ، وهى تَدْعَكُ أصابعَها .

فقلتُ لها :

ولأىِّ غَرَضٍ تَفعَلينَ ذلك ؟

فقالت وعيناها تَدِيتَانِ بالدموع :

لأنى أُحِبُّك !

فأَطَلْتُ النظرَ فيها ، وقلت :

أتحبينَنى إلى هذا القَدْر ؟

فأجابَتْنى فى نَغْمةٍ فِطْرِيَّة هادئة :

نعم أُحبك وأَفديك بالروح !

فانطلقتْ منى ضِحْكَة عالية . وأَحطْتُها بذراعىّ ، وقلت :

ممَّنْ تعلمتِ هذه الجملة ؟

— من مُعَلِّمَةِ العربى التى تُعْطينى الدرس فى مصر . . . كانتْ تقولُها أمامى كثيراً !

— لكِ ؟

— لا ، أبداً ، إنها لا تُحِبُّنى وأنا لا أُحبها ، كانتْ تقولها وهى تنظُرُ دائماً إلى سَقْفِ الغُرْفَة ، ثم تَتَنَهَّد . . . وكثيراً ما كَتَبَتْها على الورَق النَّشَّاف ، ووضعتْها فى كتابِ أستاذى الذى يعلِّمنى الحساب !

— . . . ولِمَ أَخْفَيْتِ هذا عنى ؟

— كما أخفَتْ معلمتى أمرَها عن أستاذِ الحساب !

فحملتُها وذهبتُ بها إلى الخِزَانة ، وأخرجت لها « باكو شكولاته » ناولتُها إياه ، وذهبتُ معها إلى النافذة ، فوقع

— ١٥٤ —

نظرى على « حياة » و « أمل » تتنزَّهان فى الحديقة ، فوقفتُ أتأمَّلُهما طويلا ، والصمتُ يخيِّمُ علىّ ...

وفى الصباح حَزَمْتُ متاعى فى ساعة مُبَكِّرَة ، وأقلَّنى القطار إلى مصر . . . .

ومكثتُ أسبوعاً لا أقابلُ أحداً ، ولا أنظر فى مرآة . . . !

ر ـ ـ ـ ، !

مضى صديقى « فريد » يقص علىّ من ذكرياته البعيدة ، قال :

نادانى عمّى صباحَ يوم من الأيام ، وكان قد انتهى من تناول فطُوره ، فتربع على مُتَّـكَئِه المُرِيح وَسْطَ وسائده ، وجعل يُدَخِّن ويحتسى القهوة ، فلما مثَلتُ أمامه ، أجلسنى بجواره ، وقال :

اسمع يا « فريد » ، لقـــد كبِرَتْ سنِّى كما تعلم ، ووَهَنَتْ قُواى ، فلم أعد أستطيع الإشرافَ على شؤون الضَّيْعة . فهل لك فى أن تأخذَ مكانى ، فتعينَنى على أن أستريح ؟ . . . إننى عميد الأسرة ، وأنت فتاها الوحيد .

فأردت أن أتـكلم ، فاستأنف قولَه مقاطعاً :

لن تخسَر وظيفتـك فى الوزارة ، حسبى منك الخميس والجمعة من كل أسبوع ، تقضيهما فى الريف .

*
* *

بعد أيام من هذا الحديث ، أخذت مكان عمِّى فى « الدائرة » ، وبدأتُ فى تدبير أعمال الضيعة بنشاط وحماس ، متتبِّعاً فى ذلك الأنظمة الأساسيَّة التى سنَّها عمّى لتكونَ دستوراً للعمل .

وقدَّموا إليَّ يوماً كشفَ المرتباتِ الخاصِّ بموظَّفى الضَّيْعة ، فقرأه الكاتبُ أمامى اسماً اسماً . فكنت أستوضِحُه كلَّ شخص ، فيزوِّدنى عنه بمعلومات مفيدة ، حتى وصل إلى اسم « الشيخ حِميدَة الباز » ، فعلت فمه ابتسامةٌ مُرِيبة ، فقلت :

ماذا ؟

— لا شىء .

— ما صناعة « الشيخ حميدة الباز » ؟

— أحد خُفَرَاء الضيعة .

وعاد يبتسم ابتسامته المُرِيبة ، فأمررتُ يدى على جَبهتى ، وانطلقتُ أُجَمِّعُ بعض حوادثَ نَأَى بها الزمن ، وأنا أُتمتم :

الشيخ حميدة الباز ، الشيخ حميدة الباز . . . . !!

ثم رفعتُ رأسى ، وحَدَّقْتُ فى وجه الكاتب ، وقلت :

أليس هو ذلك الشِّرِّيرَ الكبيرَ ، صاحبَ الجرائم المعروفة ؟

— هو بعينه .

— وتعينونه خفيراً ، وتُسْكِنونه الضَّيْعَة ، وتمنحونه مرتباً شهريًّا . . ! ؟

— هذا هو الواقع يا سيدى !

— ومتى ألحقتموه بهذه الوظيفة ؟

— منذ عشرة أعوام . . . !

نهضتُ من فورى إلى عمِّى ، فإذا هو على مُتَّكَئِه الوثير ، ملتفٌّ بعباءته الفَضفاضة الحمراء ، على رأسه « طاقية » بيضاء من الصوف مزركشة الحَافَة . وكان مشغولا بسَعُوطه يَنْشَقُه . فلما رآنى مقبلا عليه ، قال وقد بسط منديلَه الْمَحَلَّاوى الكبير :

خيرًا إن شاء الله !

— كله خير يا عمى ، لقد جئتُ أسألك عن « الشيخ حميدة الباز » . . . !

فأخذ بِطَرَفِ مِنديله ، وراح يمسَح عينيه وأنفه ، وقال :

شيخ مَنْسِر الناحية ؟

— هو بنفسه !

— أترغب أن تَزِيدَ فى راتبه ؟

— بل العكس . . . : إنى أفكر فى طرده !

فابتسم ابتسامة لا تخلو من تَزَمُّت ، ثم عَطَسَ عَطْسَةً خفيفة ، وقال :

أتريد أن تُنْتَهَبَ المزرعة ؟

— واين إذا حُرَّاس الأمن ؟ إن هذا يشجِّع الأشرار على فرض ما يشاءون من إتاوات على أصحاب المزارع !

فأخرج مِسْبَحَته ، وراح يداعِب حبَّاتِها وقتاً وهو صامت ، ثم قال :

أفعل ما تراه صواباً .

ثم حدق فىَّ بعين ذاتِ بريق خاطف ، وقال :

لِتعلمْ قبل كلِّ شىء أنكَ مسئول عن كلِّ خَسارة تلحَق بضيعتنا !

وتركتُ عَمِّى تَتَنَازَعُنِى شتَّى الدوافع . وفى المَساء عنـد ما التقيتُ به على مائدة العَشاء ، قال لى وهو يشرب حَسَاءه :

هِيهِ يا فريد ، ماذا فعلتَ بصاحبك « الشيخ حميدة الباز » ؟

— تركتُه كما هو ، يسرح فى الضيعة كما يشاء ، ويأخذُ الإتاوة من خِزانتنا !

— حسناً فعلْت !

ومسح عمّى شاربَه الأَشْيَب ، وقد بلَّلَتْهُ قَطَرات الحَساء وقال :

أتذكر حادثةَ السطو المشهورة التى وقعت فى البلدة المجاورة لضيعتنا : « كفر عتيق » ، وقُتِلَ فيها أحدُ خفراء الحكومة ؟

— أذكر شيئاً منها .

— كنتَ فى التاسعة من عمرك ، وقد صَحِبْتَنِي وقتئذ إلى الضيعة لنقضىَ إجازة العيد . . . كانت ليلةً لَيْلاء يزأر هواؤها البارد ولا يَنِي . وكنتَ نائماً فى فراشك ، فأفزَعك إطلاق الرَّصاص ، فهرولتَ إلىَّ بقميص النوم ، تسألنى ما الخبر ؟ وتحتمى فى عباءتى !

— لقد كانت جَلَبَةُ الرجال وصُرَاخُ النساء العالى يُدَوِّيَان مع الريح دَوِيًّا هائلاً . . .

— وخرجنا إلى « الدّوّار » ، « ومَرْجان » العبد يُنير الطريق أمامنا بمصباحه المُغْبَرّ ، فوجدنا الناظرَ والخفراء وبقيةَ الموظفين مجتمعِين يتشاورون ، والفزع مرتسم على وجوههم . . . لقد فوجئوا بأن القاتل من رجال الضَّيْعَة !

وتناول عمى بين أُنْمُلَتَيْه قليلاً من عُلْبة النَّشُوق ، وراح يَنْشَقُه فى استمرار . . . ومال برأسه على ظهر المُتَّكإ ،وأسبل جَفنيه ، ثم استأنف حديثَه قائلا :

وقد طَوَّق « المأمور » الضَّيْعة ، وفَتَّش مبانيها ، وقبض على نفر من سكانها .

— وهل كان القاتل منهم ؟

— لم تثبت التُّهَمة على أحد ، وإن كان الناس جميعاً يؤكدون أن بطل الحادثة هو « الشيخ حميدة الباز » !

وسَكَتَ عمى ، وقد بدأت تغشاه موجة من الخمول . وقمتُ إلى حجرتى ، وانطلقتُ أُفكِّرُ فى أمر هذه الحادثة ، وما تلاها من حوادثَ على شاكلتها ، كنت أسمعها من أفواه رجال الضيعة عند ما أقصِد إليها ، أيامَ طفولتى ، مع عمى . . . كانوا يروون هذه المغامرات عن « الشيخ حميدة الباز » على أنها قِصَص للمسامرة ، فأستمع إليها فى شغَف ممزوج بتَخَوُّف ، وأقضى ليلتى قَلِقَ المَضْجَع ، تتراءى لى الخيالاتُ المروِّعة ، ومن بينها شبح هذا اللصِّ العريق فى الإجرام ، وهو يقتحم الحجرة شاهراً فى وجهى « بلطته » الحادَّة الملوَّثة بالدماء .

وقد كان فى وُسعى أن أشهده ، ولكنى لم أفعل ؛ بل كنت أتوخَّى دائماً أن أتجنَّب رؤيته . وظَلِلْتُ أسمع عنه سنةً بعد سنة ، ثم شغلتنى الدراسةُ عن زيارة الضيعة ، وتغيَّبت بعد ذلك أعواماً فى أوربا ، فتطايرت من رأسى أخبارُ هذا السفَّاك ، حتى كدتُ أنساه كلَّ النسيان .

* * *

(١١)

وانقضى شهر على حديثِ عمِّى ، وسافرتُ إلى الضَّيعة لتفقُّد أحوالها ، وكانت أولَ زيارة لى منذ أن توليتُ إدارتها .

وصلتُ إلى الضيعة فلم أجد ثَمَّةَ تغييراً يُذكر ؛ فالدار القديمةُ ذاتُ الطبقة الواحدة كما هى ، والمتنزَّه الصغير ذو الشجيْرات الهزيلة ما يزال أمامها ، و « مَرجان » العبد واقفٌ بالباب يستقبلنا بوجهه اللامع الباشّ .

وبعد أن نلتُ قسطى من الراحة ، خرجتُ إلى « الدَّوَّار » فما إن شاهدتُ الناظر ، حتى بادرتُه بقولى :

والشيخ حميدة الباز . . . كيف حاله ؟

— بخـــير !

— ألك أن تَدْعُوَه إلىّ ؟

وبعث الناظرُ رسولا ليأتىَ بالشيخ ، وجلستُ على المَصْطَبة ، ذات « الـكليم » الصوف الأحمر الفاقع . وبدأتُ أشرب القهوة ، وأنا أصوِّر فى مخيِّلتى شكلَ « الشيخ حميدة الباز » كما أتوهمه . . . رجل سَبْط القامة ، قوىّ العضَل ، ذو وجه مُتَجَهِّم ، ومِشْية ثقيلة ، ينثر الفزعَ حوله حيث تَلَفَّتَ .

وظهر الرسول وخلفَه شخص قَمِئ أعجفُ ، غائر الأشداق ،

يجرّ نفسه جرًا . دنا منى ، وانحنى على يدى يريد أن يقبّلها وتمتم يقول :

خدّامك حميدة الباز !

وجلس الرجل على الأرض ، وأخذ يَسْعُلُ سُعَالاً كريها يتزلزل منه جُسمانه ، فتحسَبُه يتناثر قِطَعًا . . .

وبعد أن استعاد قوتَه ، قلت له :

كيف حالك يا شيخ حميدة ؟

— معدن يا سيدنا البيه ، ما دمنا فى خير سعادتك !

ورحتُ أنظر إلى هذا الهيكل المزعزع ، ذلك البناء المحطم ، أتفَحَّصه فى عَجب . وأمرتُ له بقهوة ، وناولته لِفافة ، فأخذها شاكرًا ولكنه لم يُشعلها ، بل أخرج عُلبة تبغ ووضعها فيها بعناية ، وأخذ يَلُفُّ من دخانه لِفافة ، فقلت له :

لعلك لا تستلذّ غيرَ تبغك ! ؟

فابتسم ابتسامة وديعةً ، وقال :

إنى أحتفظ باللفافة لأمّى !

فناولتُه أخرى ، وقلت له :

هذه لك ، على شرط أن تدخنَها !

فأشعلها ، وجعل يدخنها ، ويحتسى معها القهوة فى سرور .

وقلت له :

كيف حال الأمن فى مِنْطَقَتِنا ؟

فرفع رأسه ، وحدّق فىّ بعينين كأنهما جَذْوَتَا نار تتوهّجان تحتَ الرّماد ، وقال فى لهجة حازمة :

وهل تظن أن أحداً من الأشرار تحدثه نفسُه بشىء ما دمتُ حيًّا ؟

فأردتُ أن ابتسم هازئاً ، فخانتنى شفتاى ، وشعَرتُ بكلمات الرجل تمرُق كالنصال الحادَّة إلى شَغَاف قلبى .

وانطلق بعد ذلك « الشيخ حميدة الباز » يتكلم ، فأخذ يَروى لى أخبارَ أسرته ونسبِه العريق الذى ينتهى إلى قبيلةٍ من « قَيْس » . فقلتُ :

أعربىٌّ أنت ؟

— لقد جاء جَدِّى الأكبرُ محاربا مع الغزاة الفاتحين . . .

— ما شاء الله !

— وقد استقرتْ قبيلتُنا بعد ذلك فى « مُدِيرِيَّةِ الشَّرْقِيَّة » ، وكنا دائما يُعتمد علينا فى الفتح و إخماد الثَّوْرات . . . إن التاريخَ ليتغنَّى بمآثرنا ، ويَروى وقائعنا ، ويذكر مجدَ الفِتيان والكهول منا .

وكانت الدوابَ قد أُسْرجَتْ ، وأُعدَّت للركوب ، فقلت لـ « الشيخ حميدة » :

ستتناول معى طعام الغَداء . . . السلام عليكم !

فرفع يديه إلى رأسه يردّ السلام .

وتناول معى « الشيخ حميدة الباز » الغَداء ، فقضيتُ معه وقتاً من أطيب الأوقات ، إذْ كان يقصُّ علىَّ فى جَلْسة الطعام طريفَ النوادر والقِصَص ، فوجدت فيه مُحَدِّثاً أنيساً ذَلِقَ اللسان . وقد وَصَفَ لى — فيما حَدَّثَ — حبَّه لأمه ، وعطفَه على ربيبته التى تبنَّاها بعد موت زوجته ، ولم يعش له من أولادها أحد . فكان لهذه الربيبةِ من نفسه عزازَةُ الابنة الحقَّة ، يَتَعَهَّدُها ببرّه ، ويحنو عليها حنوَّ الأبِ الشفيق .

* * *

وعدتُ بقطار المَساء إلى القاهرة ، ودخلتُ على عمِّى ، فوجدتُه كعادته على المتكإِ الوثير ، وبجانبه عُلبة نَشُوقه الفِضِّية . فقلت له من فورى :

لقد رأيتُ الرجل وجلستُ معه ! .

— أىّ رجل ؟ .

— صاحبنا شيخ المَنْسِر ! .

فابتسم عمى ، وقال : .

ما أعظمَ شجاعتَك ! .

— إننى عند ما أتصوَّر أننا نعطى هذا الرجلَ الفانىَ مرتَّباً شهرياً نظيرَ إشرافه على حفظ الأمن ، وهو غيرُ قادرٍ على دفع ذُبابة عن وجهه ، لا أتمالك من الإغراق فى الضحك . . . .

فقال عمى ، وقد بدا عليه بعض العُبوس :

إذاً لِمَ لا تقطع المرتَّب ؟ .

— كلا ، إنى لأتبرَّع به رحمةً بهذا البائس الضعيف !

* * *

وفى المرة التالية عند ما سافرتُ إلى الضيعة ، سألتُ عن « الشيخ حميدة » ، فأخبرونى بأنه ذهب إلى « كفر الطَّبَّال » ، للاحتفال بزواج رَبيبته . وعلمت من « مَرجان » العبد أنه أنفق فى جَهازِها وفى عُرْسها ما لا يستطيعه إلا الأثرياء . وأضاف « مرجان » إلى ذلك قولَه :

لقد كنا نسأله : لِمَ كل هذا يا « شيخ حميدة » ؟ فكان يجيبنا فى بداهة : أليست هى وحيدتى ، قرةَ عينى وبهجة

قلبي ؟ فإذا لم أفرح بها ، فبمن أفرح يا تُرَى ؟ .

— وهل رأيتَ ربيبته ؟ .

— نعم . إنها لا تساوى فى نظرى قرشاً واحداً .

— كيف ؟

— إنها كالجَرَذِ الأجرب ، قصيرة نحيلة ، ذاتُ وجه ينفُر من بشاعته الشيطان . . . وهى مطبوعة على الشرّ ، تتجسَّم اللُّصوصيَّة فى عينيها .

— وممن تزوجَتْ ؟

— اختار لها والدُها رجلا من أعوانه الأصفياء . . . ومن يرضى أن يتزوجها غيرُ هذا الصِّنف من عباد الله الضالِّين ؟ ! .

* * *

وتلاحقتْ زيارتى للضيعة ، وتوثَّقتْ بينى وبين « الشيخ حميدة » روابطُ الأُلفة . فكثيراً ما دعوتُه لتناول الغَدَاء معى ، وكنت أُعْنَى بتقديم الشاى له لما أعلمه من غرامه الشديد به . وكثيراً ما قضينا السَّهرةَ معاً إلى ساعةٍ متأخِّرة من الليل ، وأمامى المِدْفَأة وإبريقُ الشاى ، أستمع إلى « الشيخ حميدة » ، وهو يروى لى مختلِف النوادر والحكايات ، أو يُنشد « المواويل » الريفية

الجميلة ، أو ينطلق سارداً لى المُعْجِبَ المُطرِبَ من الأمثال العامّية . وقد تثور به نُعَرَتُهُ العربية ، فإذا بلسانه يتعثَّر ببعض أبيات يحفظُها ملحونةً من الشعر العربيّ فى لهجة مبتذَلة مضحكة . . . ولم يكن يتعرّض فى أحاديثه لذكر وقائعه التى اشتهر بها ، بل كان يَتَوَقَّى أن يشير إليها ، ولكنه طالما تغنَّى لى بأصله العربىّ العريق — كما يَدَّعِى — وبمجد قبيلته القَيْسِيَّة . وكان دائماً يقول وهو يقرَع صدرَه بقبضة يده :

نحن من أشراف العرب ومن سَرَاتِها الأصائل !

وإذا انساق الحديثُ إلى أمه أو ربيبته ، رقّ صوته ، وعلا البشرُ وجهَه ، وأفاض عليهما من تَحْنَانه ما شاء أن يُفِيض . . . !

* * *

وتوالت الأيام . . . وحان ميعاد التحصيل ، فقصدت إلى الضَّيْعة أُراقب العملَ بنفسى . وكنا فى أواخر الربيع ، وقد بدأ الفلاحون يَحْصِدُون القمح ، وأخذت الأجرانُ تعمُرُ بعيدانه الذهبيَّة ذاتِ السنابل الممتلئة . وجاءنى الناظرُ بمَثْنَىْ جنيه فى كيسيْن من النسيج . وكان الوقت ظهراً ، فوضعت النقود فى خِزانة بحجرة نومى ، واستوثقتُ من

إغلاقها بالمفتاح ، وكنتُ مُزْمِعاً الرحيلَ فى اليوم التالى .

وبعد العَشاء قضيت فَترةً من الليل أُسامر الصحف والمجلات ، ولو كان « الشيخ حميدة الباز » موجوداً فى هذا اليوم بالضَّيعة ، لاستغنيتُ به عن مسامرة هذه الصحف المفعَمة بالأضاليل . وقد سألت « مَرجان » العبد عنه ، فقال وقد اهتزت شفتاه المهدّلتان ، وتشنجت زاويتا فمه :

لقد ذهب إلى « كفر الطويل » ، فى إحدى مغامراته . . . ربنا ما يرجعه ! .

فقلتُ وأنا أتضاحك :

ما هذا التخريف « يا مرجان » ؟ إن الرجلَ قد ودّع هذه الشقاوات من زمن طويل !

— أقسم لك يا سيدى إنه لن يكفَّ عنها ، حتى بعد مماته .

— وهل له من عزم وقوة يمكّنانه من القيام بمثل هذه المغامرات الآن ؟ .

— إن هؤلاء الأشرار يستمدّون قوتَهم من الشيطان . . .

وكان الوقتُ قد قاربَ منتصفَ الليل ، فقلت لـ « مرجان » وأنا على أُهْبة الذَّهاب إلى حجرة النوم :

وكيف حال ربيبتِه . أناعمةُ البال هى مع زوجها ؟

— يقولون إنها مرتاحة جدًّا . . . إنها فى الضَّيْعَة الآن تقضى أياماً مع أُمّه .

— أَتَقَدَّمُ فى ضيافته ، فيتركها وينصرف إلى مغامراته كما تدَّعِى ؟

— لا تنس يا سيدى أننا فى موسم التحصيل . . . !

وصرفتُ « مَرجان » ، وقصدتُ إلى حجرة نومى ، واتجهتُ إلى الخِزانة لآخذَ منها شيئاً ، ولَشَدّ ما دَهِشْت حين وجدتُ بابها مفتوحاً ، فامتدتْ يدى على الفور إلى حيث وضعتُ صُرَّتَى النقود ، فلم أجدهما ، فقلَبْتُ ما تحويه الخِزانة رأساً على عقِب باحثاً منقباً ، فكان مجهوداً ضائعاً . فصرخت أنادى « مرجان » ، وأعلمته بالخبر ، فقال ، وقد غارت تجاعيدُه ، وازدادت شفتاه تهدُّلا :

أمتأكد أنتَ يا سيدى أنك وضعت الصُّرَّتَيْن فى الخِزانة ؟

— وأين أضعهما يا غبىّ ، أيوجد فى الحجرة مكان آمَنُ منه ؟

— أقسم لك يا سيدى إننى لم أفارق المنزل !

— إنك تحسن النوم تاركاً لُعابك يتساقط على الأرض دونَ أن تشعر . . . لا بد أنهم غَافَلُوك ، وأنت نائم ، فسرقوا النقود . . .

وأخذ « مَرجان » العبد يَلْطِم خدَّه ، وخرج مهرولاً يستدعى الناظر ، وجعلتُ أفكر مغالِطاً نفسى ، مخادعاً يقينى : أأكون قد أخفيتُ الصُّرتيْن فى مكان آخر ، وقلَّبت فِراش السَّرير ، وبحثت تحت المقاعد وفى الأركان ، ولم أُعْفِ أىَّ شىء ، حتى خِزانة المأكولات ، من تفتيشى ، ولكن ذهب كلُّ ذلك بلا جدوى .

وسمعتُ لَغَطاً شديداً بالباب ، فخرجتُ فوجدتُ الناظر بملابِس النوم وهو محاط بموظَّفى الضيعة والخفراء ، فقلت :

لقد وقعَت السرقة ، هـذا أمر واضح . . . فيجب أن نعمل على ضَبْط الجناة فى أقرب وقت . أخشى أن يتمكنوا من الهرب .

وأصدر الناظر أمره بتطويق الضَّيْعة ، فلا يُؤذَنُ لأحد فى أن يبرحَ مكانه . وذهبت وإياه إلي حجرة الجلوس للمشاورة ، فقال لى :

سألجأ ، قبل إعلام المركز وفتح التحقيق الرسمى ، إلى طريقة ريفيّة قديمة ، كثيراً ما نجحتْ فى مثل هذه الحالة .

— ما هى ؟

— سَأَنْصَحُ لأهل الضيعة بأن يراجعوا أنفسَهم ، ويعيدوا الصرتيْن بالحُسْنَى ، مهدِّداً إياهم بأقصى العقوبات إذا أصروا على

إخفاء النقود . أما طريقة ردّ المبلغ دون أن يُعْرَفَ السارق ، فهى أن يخرجَ من كلِّ بيتٍ شخصٌ يحمل قُفَّةً مملوءة بالتراب يذهب بها منفرداً إلى مكان معلوم فى الجرن ، فيُفرغها فيه ، فالسارق يستطيع أن يدسَّ الصرتيْن فى القُفَّة المملوءة بالتراب ، ويذهب بها إلى الجرن فيُفْرِغ محتوياتِها فى ذلك المكان بعيداً عن الأنظار ، فإذا تم العمل وأفرغ كلّ رجلٍ قفته ، ذهبنا إلى كَومَةِ التراب فبحثنا فيها .

— حسناً . . . فلنبدأ !

خرجنا إلى المساكن فى ضوء المشاعل ، وكانت السماء صافيةً تلتمع نجومُها كأنها عيونٌ حادة يقظة ، ويهُبُّ النسيم الرطْب على الوجوه ، فيُكْسِبُ النفسَ القَلِقَةَ الحَيْرَى شيئاً من الطمأنينة والرضا ... وكانت الضيعة قد استيقظت بأسرها ، وعلتْ همهمةٌ غامضة فى جوها . كل أسرة أمام دارها تتساءل فى وجَل عن حادث الليلة . . . النساء جالساتٌ القُرْفُصاء مع أطفالهن ، ملفوفاتٌ فى ثيابهن السود ، يتراقص عليهنّ ضوء المشاعل فيُحيلهن من آدميات إلى أشباح ؛ والرجال مُنْتَحُونَ جانباً ، جماعاتٍ جماعات ، يتهامسون فى وجوم !

وخرجتْ أسرابُ الدَّجاج من الدُّور، تَتَلَفَّتُ فى مِشْيَتِها المتَّزِنة ، تتساءل متعجِّبة عن سر هذه اليقظة المبكِّرة ، فلما تبيَّن لها أن الأمرَ لا يَعنيها انطلقت تُنَقْنِقُ وتَنْبُشُ الأرض بمناقيرها ومخالبها . وردَّدَت السُّطُوح صِياح بعض الدِّيَكة ، وقد ظنتْ أن النومَ غلبها فتأخَّرت عن تحية السَّحَر . وظهرتْ شراذم الكلاب الهزيلة ، بأذنابها المدلاَّة ، تُنَقِّلُ نظرَها الخائف البليدَ بيننا . . . !

ومرَّ الناظر على أهل الضيعة ، يبسط لهم ما اعتزم فعلَه ، وهو يهدد مرةً ويتحايل أخرى ، حتى أتم جَوْلته . فعاد إلينا ينتظر ، واختفت النِّسوة ورجالُهن فى الدُّور ، وتولى شيخُ الخفراء الإشرافَ على العمل ، فقصد إلى الباب الأول وقَرعه . وبعد حينٍ خرجتْ منه امرأة مُسِنَّة تحمل قُفتها على رأسها ، وذهبتْ إلى الجرن منفردةً ، ثم عادت والقُفة فارغةٌ فى يدها . وانتقل شيخ الخفراء إلى البيت الثانى ، فالثالث ، فالرابع . . . وهلم جرا . حتى أتى إلى البيت الأخير ، فخرجت منه صبيَّة ضئيلةُ الجسم ، وعلى رأسها قُفتها ، واتجهت صَوب الجرن كالأُخريات ، ومال علىَّ « مَرجان » العبد قائلا :

أتعرف هذه ؟

— كلا !

— إنها « زهر الورد » ربيبة « الشيخ حميدة » .

وعادتْ بعد قليل « زهر الورد » بالقفة فارغة .

وأعلمنا شيخ الخفراء بانتهاء « العملية » فقمنا إلى الجرن .

وأكبَّ الناظر على الكُومَةِ يَقْلِب عاليها سافلها ، وسافلها عاليها ، وهو ينثُر التراب فاحصاً مدققاً ، فلم يجد شيئاً . . . فاحتقنَتْ عيناه ، واهتزَّ شاربه الغليظ المُعَفَّر ، وردَّد فى لهجة قاسية :

سَيَرَوْن ، سيَرَوْن !

وصرخ يقول لـ « مرجان » العبد :

عَلَيَّ بالفلقة يا ولد !

ورأيت « مرجان » يهرول نحو « الدوّار » ؛ ليُعِدَّ « الفَلَقَة » للمتهمين ، وكان كلما خطا بضعَ خطوات ، عَثَرَتْ قدمُه ، فانكفأ على وجهه . . .

وعدنا إلى « الدّوّار » وبدأ الناظر فى « التحقيق » فاتضح لنا أن السارقَ غلام أو نحو غلام ، رَأَوْا شبحه يروح ويجىء على سطح الدار الملاصقة للبيت الذى وقعت فيه السرقة . فالراجح

أن هذا الغلام تسلَّق الجدار ، ودخل البيتَ من إحدى نوافذه ، أو من باب الشرفة القبليّ ، ثم خرج دون أن يَلْفِتَ إليه الأنظار . ولم يُعِرْه الخفراء اهتمامهم ، فقد ظنوه يطلب شيئاً من الحطب الملقى على السَّطْح ، وكثيراً ما يقع مثلُ ذلك .

فتمتم الناظر :

إنى أحصر شبهتى فى « المنوفى عطا الله » . . . إن له قامة الغِلمان وخفةَ حركتهم ، وفوق ذلك فماضيه غير مشرف . . .

ثم صرخ :

علىَّ بـ « المنوفى عطا الله » . . . !

وصرخ شيخ الخفراء من بعده

ثم سمعتُ « مرجان » يصيح قَدْرَ ما تسمح له قوته وشجاعتُه فى هذا الوقت :

« المنوفى عطا الله » حالا . . . !

وانتقلت الجملة على ألسنة المنادين ، واحداً بعد واحد ، وهم واقفون لم يتركوا أمكنتهم ، حتى وصلتْ إلى منزل المتهم ، فاستقرت فيه !

. . . وبعد قليل ظهر « المنوفى عطا الله » ، فإذا هو قَزَمٌ

معروق نحيف، فى هيئة الغِلْمان . يَنُمّ وجهه الكاسفُ المضطرب عن شيء من الدّعة . تقدم منا وشفتاه ترددان فى خلط وتسرّع :

مظلوم والله يا جناب الناظر ! . . . . مظلوم !

فملتُ على الناظر ، وقلت هامساً :

إن مظهره لا يدل على شر !

— لا تَغُرَّنَّكَ الظواهرُ يا سيدى . . . إن هؤلاء الفلاحين يسترون خلفَ مظاهر الدّعة والسكينة ، قلوباً ملؤها الخبث والمكر !

ثم التفتَ الناظر إلى « المنوفى عطا الله » وقال :

أُعترفْ بالحقيقة وأَحْضر المبلغ ، وإلا شَوَيْتُ قدمَيْك شَيًّا ! !

فأخذ الرجل يستعطف فى ذِلة ، ويؤكد لنا براءته مؤيّدةً ببراهينَ واضحة ، فقال الناظر :

قلت لك اعترف بالحقيقة ، وأَحْضر المبلغ !

وسمعت « مَرجان » العبد يقول وهو يُعِدّ « الفَلَقَة » باهتمام :

قرّ يا ابن الناس بالحقيقة ، أحسن لك !

ولكن « المنوفى عطا الله » ظل يستعطف ، ويؤكد لنا براءته ، فنفِد صبرُ الناظر ، وصاح :

اطرحوه أرضاً ! . . .

وهمّ الخفراء أن يمسكوا به ، فإذا بصوت من الباب يقول : صبراً يا أولادى صبراً !

فالتفتْنا نحو مصدرِ الصوت ، فإذا بـ « الشيخ حميدة الباز » مقبلٌ علينا ، يتحامل على عكازَتِهِ ، وسلَّم علينا وهو يقول :

لقد أتيتُ فى الوقت المناسب .

ونظر إلىّ قائلا :

قلبُ المؤمن دليلُه يا سيدنا البيه ، أُقسم لكَ إن هاجساً كان يهجس فى صدرى وأنا « بكفر الطويل » ، يقول : قم إلى « شندويل » ، إن أمراً قد وقع هناك . فلم أتوانَ ، وجئتُ على عجل ، وما كادت قدمى تطأ الضيعة حتى علمتُ بالخبر . . .

فقال له الناظر :

وماذا تنوى أن تفعله ؟ .

فابتسم « الشيخ حميدة » ابتسامةً سانحة ، ثم رأيتُه وقد صَلُبَ عُودُه ، وتوهجت عيناه تَوَهُّجَ المِشْعَل ، وقال فى صوت عاصِفٍ :

سيعود إليكم المبلغ . . .

— ولكن . . . .

— قلت لك سيعود إليكم المبلغ يا حضرة الناظر . . . .

(١٢)

أهذا هو صوتُ « الشيخ حميدة الباز » ، الفانى المتآكِلُ النَّبَرات ؟ كاد يختلط علىّ الأمر ، فأحسَب أن المتكلمَ شخص آخر . . . وغمر « الدوارَ » صمتٌ شامل ، فسكن اللَّغَط ، وهدأت الجَلَبَة ، كأن قوة سحرية غير منظورة قد سيطرت على المكان . وشخَصَتِ الأبصارُ كلُّها إلى « الشيخ حميدة » كأنها انجذبت إليه بمغنطيس ، وقال الشيخ لـ « المنوفى عطا الله » :

أذهب إلى دارك !

فخرج الرجل مُذْعِناً للأمر .

والتفتَ « الشيخ حميدة » للناظر ، وقال :

سآمر النِّسوة أن تخرج كلُّ واحدة بقُفَّتِها إلى الجرن . . . سنعيد العملية مرة أخرى . . . هلم !

وقصدنا ثانياً إلى المساكن ، ومر « الشيخ حميدة » على الدُّورِ ، يعلن للسكان ما قرَّ العزمُ عليه ، ولم يستثن داره . وكان يسير فى خِفَّة غريبة ونشاط عجيب ، وصوته يُزمجر زمجرةَ الأسدِ الغَضُوب !

وبدأت النِّسوة تخرج عَوْداً على بَدْء ، و « الشيخ حميدة » واقف بباب الضيعة يرمُقُهُنَّ بنظراته الفاحصة ، فكأنها السهام

الحادّة تَنْفُذُ إلى شَغَاف قلوبهنّ . وجاء دور « زهر الورد » ربيبته ، فخرجت بقفتها ، ومرتْ أمامه ، وهو يرمقها بنظراته كما فعل بالأُخريات ، فإذا بالفتاة تترنّح فى مِشْيتها حتى كادت تهوى على الأرض ، ولكنها جَمَعَت شجاعتها ، واستوت ثانياً ، وتابعت سيرَها . . . أعَثَرَتْ قدماها فى شىء بالطريق ؟ أم . . . !

ورأيتُ وجه « الشيخ حميدة » على ضوء المِشعل ، وقد تفلّصَتْ عضلاته ، وتغير لونه ، ثم وجدتُه يضرب الأرض بعُكّازته ، وانطلق فى تفكير عميق مضطرب .

وعادت « زهر الورد » بالقُفّة فارغة ، وأشار لنا « الشيخ حميدة » بالذهاب إلى الجُرن ، فذهبنا . وما كاد الناظر يدُسّ يده فى كُومَة التراب ، حتى صاح بملء فيه :

لقد ردّوا المبلغ . . . . ردّوا المبلغ . . . .

وأخرج الكيسيْن ، وعَجِلَ بهما إلىّ . وسمعتُ « الشيخ حميدة » يقول بصوت أجشّ ، وقد علا وجهَه التجهّم :

ليسمح سيدى البيه بأن يعدّ نقودَه !

وعددتُ النقودَ فوجدتها كاملة ، فهززت يد « الشيخ حميدة » شاكراً . . .

وامتلأ جو الضيعة بزغاريد النِّسْوة ، وتعالت أصواتُ الحمد والشكر لله . وعدتُ إلى البيت ، وكأنى وسط مظاهرة صاخبـة !

ولما خلوت بـ « مرجان » العبد ، قلت له :

ما رأيُكَ فيما حصل ؟

فمسح لُعابَه ، وأجاب وهو مقَطِّبُ الجبين رزانةً وجِدًّا :

ألم أقل لك يا سيدى إنه على اتصال دائم بالشياطين ؟

وفى الصباح الباكر ، ولم أكن قد استوفَيْتُ قِسطى من النوم ، سمعتُ قَرْعاً شديداً على الباب ، فقمت فَزِعاً لِأَعلم ما الخبر ؟ فقابلنى النـــاظر بوجهٍ مكفهِرّ ، وعينين زائغتين ، وهو يقول :

لقد وقعتْ جريمة فظيعة فى الضَّيْعة !

— أيةُ جريمة ؟

— وُجِدتْ « زهر الورد » مذبوحة ذبح الشاة !

— ربيبة « الشيخ حميدة » ؟ !

— هى بعينها !

— والقاتل ؟ ؟ !

— غير معروف ؛ فقد حاولنا أن نستجوب أمّ « الشيخ حميدة » فوجدنا لسانَها معقوداً ، وقد أصيبتْ بخَبَل .

— و « الشيخ حميدة » . أين هو ؟

— فى « كفر الطويل » ، عاد إليه قبل الفجر ، وقد علمتُ الساعةَ أن سَرِقة جسيمة وقعت فى الكفر المذكور ، وأن « الشيخ حميدة » متهم بها .

ونظرتُ إلى «مَرجان» ، فإذا بشَفتيه المهدلتيْن ترتجفان ، فيُسمع لهما قَرْقَرَة كصوت الجمل وهو يُرْغِى ويُزْبِد .

وقصدتُ إلى المتكإ ، وجلست عليه ، وبدأت المشاهد المختلفة تتراءى أمام ناظرى ، وكان أشدَّها وضوحاً وتَكراراً صورةُ « زهر الورد » بقامتها القصيرة الهزيلة ، التى تشبه قامة

— ١٨٢ —

الغِلْمان ، وهى خارجةٌ بقُفَّتها إلى الجرن ، وكيف ترنَّحت وكادت تَهْوِى على الأرض أمام نظرات أبيها المستكشِفة . ثم ما بدا على الرجل من تجهُّم وحَيرة بعدئذ ، ثم صورتها وقد تمثَّلتْها ذبيحةً يَشْخَبُ دمها ، وهى مُسَجَّاةٌ أمام العجوز المخبولة . . . !

زهـــنـا

وقف « أبو المكارم افندى » أمامَ المائدة ، والبِشْر يعلو وجهَه ، يعدِّد الألوانَ المثيرةَ للشهيَّة التى يزدحِم بها الخِوان .

وبَغتةً عَبَس ، والتفت إلى « دُنيا » خادمِه العجوز ، قائلا :

وأين « السلطة » ؟ أنسيتِ أن تُحضِريها ؟

فرفعتِ المرأةُ غِطاء سُلْطانيَّةٍ على المائدة ، وقالت :

أأنسى أهمّ ما أمرتَنى به ؟

وتناول الرجل السُّلْطانِيَّة ، وجعل يَشَمّها ويتفرّس فى محتوياتها ، متغزّلا ... ثم قال :

هى بعينها « سلطة بالشكشوكه » التى كانت تُفضِّلها على كل شىء ! . . . بارك الله فيكِ يا « دنيا » .

وأعاد السلطانيَّةَ إلى مكانها ، ثم نَظَر فى ساعته ، وأرسل تَنهُّدَةً زُلْزِلَ لها شاربُه الضخم المفتول ، وقال :

باقٍ نصفُ ساعةٍ لموعدِ حضورها .

وأشعل لِفافةً ، ثم التفت إلى « دنيا » وهو يَنْفُثُ الدخان قائلا :

أخشى أن تتأخَّر « الفخدة التى بالبطاطس » . هل أكَّدتِ عليهم أن يُحضروها فى الميعاد ؟

— كلّ التأكيد ياسيدى . كن مطمئنّا .

وأخذ « أبو المكارم افندى » يَذْرَعُ أرضَ الغرفة بخُطُوَاته العصبيَّة جَيْئَةً وذَهاباً ، وقد طافت خواطره بعوالمَ شتى . ثم اتجه إلى خِزَانة صغيرة ، فأخرج من أحد أدراجها دَفتراً للصور ، ووقف ينظر إلى ما يحتويه من أوضاع غيرِ محتَشِمة . ومضى يُغرِق فى الضحك ، وانهال على شاربه يَفْتِله بعُنْف ، حتى كاد يستأصل جذورَه . وبغتةً طوى الدَّفتر ، وذهب إلى المرآة ، ومَثَل أمامها يُطيل النظر فى هندامه ، تَيَّاهاً بنفسه . وصاح بـ « دُنيا » فجاءتْ مهرولة ؛ فقال لها ، وهو لم يغير وِقْفته تُجاه المرآة :

ألم تأت بعد « الفخدة التى بالبطاطس » ؟

— كلا يا سيدى . إنما . . . .

— إنما . . . إنما . . . هذه أمور لا يصح أن تحصل ، خصوصاً فى وليمة كهذه . . .

وصمَت قليلاً ، ثم تنحنح وقال بصوتٍ هادئ :

أريد أن أعرف رأيكِ فى أمرٍ يا «دنيا» . فهل تَصْدُقِينَنى القول ؟

— طبعاً يا سيدى !

— إذاً ما رأيُكِ فىّ ؟ فىّ أنا ؟ ؟

— فيكَ أنتَ ؟ ! . . .

— أَظَهَرَتْ علىّ عوارض الهَرَم ، أم ما زلتُ محتفظاً بشبابى ؟

— عين الحسود فيها عود يا سيدى . . . وحياةِ رأسِكَ عندى إن الذى يراك لا يعتقد مطلقاً أنكَ جاوزتَ الثلاثين ! . . . تبارك الخلَّاق فيما خلق !

فاهتزَّ «أبو المكارم» سروراً ، وأشرق وجهه ، وقال :

لقد بلغتُ الستين يا «دنيا» . . . أقول الستين، ومن غير مغالطة، لا كما يفعل الحريم . . . الستين ! . . . أسامعة ؟ . . . ومع ذلك هل تُبصرين شعرةً واحدةً بيضاء فى رأسى ؟

وخلع طربوشه ، وحَنَى رأسه أمام «دنيا» وأخذ يقول :

فتِّشى . . . فتِّشى . . . ولا شعرة واحدة !

ثم لبس طربوشه ، واستأنفَ قولَه :

ولم أفقد سنًّا واحدة من أسنانى . انظرى . . .

وفتح شِدْقَيْه بشدة ، فظهرت أسنانه البِيضُ المنسَّقة تلمع كأنها الصَّوَّان المصقول !

ثم اعتدل فى وقفته ، وقال فى تأكيد وغبطة ، وهو يلعِّب حاجبيْه :

هذا الطول والعرض ، وهذا الوجه الأحمر النَّضْر الذى لا أثر فيه للتجعيد ، و . . . وهذا الدم الحارّ الذى يَغْلى فى عروقى ، فيجعلنى أكثرَ حماسا فى الحب من ابن عشرين . . .

ثم اقترب من « دنيا » وخَفَّض صوته قائلا :

اسألى عنى حبائبى وعشيقاتى يا « دنيا » . . . اسألهنّ يَروِينَ لكِ العَجَب !

ودفع يده فى خَصْرِها مُلاطفا ، فقفزت المرأة العجوز قفزةَ تَصَابٍ ومجون ، وهى تتخلَّع وتضحك . ووقف « أبو المكارم » وِقفةَ جبَّارة ، وقد عاد يفتِلُ شاربه فَتْلا عنيفاً ، وقال :

أنا برضه « أبو المكارم » على سِنّ ورُمح !

ثم جلس على المُتَّكإ جِلسة القائد المغوار يَسْتَجِمّ قبل المعركة . وما أسرعَ أن هتف بـ « دنيا » ، وكانت قد تركَتِ الحجرةَ منذ برهة وجيزة ، فلما رآها صرخ فيها بغضب ، قائلا :

أين « الفخدة التى بالبطاطس » ؟ . . . أين هى ؟

— ستأتى بعد قليل يا سيدى .

— بعد قليل يا سيدى ! . . . منذ ساعة وأنا لا أسمع منكِ إلا هذه الجملة . . . أريد «الفخده » فى الحال . . . أسمعتِ ؟ فى الحال ! أمّا عجيبة يا عالَم . . . أَلِأَجل إنضاج «فخده » واحدة بـ « البطاطس » ننتظر يوما كاملا ؟ أُخرجى وَأْتِنى بـ « الفخده » فى الحال .

وفى هذه اللحظة سُمع الباب يُدَقّ ، وصبىّ الفرّان ينادى ، لتأخذَ منه « دنيا » صِينِيَّة « البطاطس » . . . فتَنَفَّسَت المرأة الصُّعَداء ، وتمتمت :

يا ما انتَ كريم يا رب !

وخرجَت ، ثم ما عَتَّمت أن عادت تحمل الصينيّة ، يفوح منها عبيرها الذَّكِىّ . فما إن رآها « أبو المكارم » حتى استنار وجهه ، وانفسحت طاقتا أنفه . . . . وقام إلى المائدة ، حيث وَضَعت « دنيا » الصينيّة ، وكشف عنها وهو يبتلع ريقَه ، ويقول :

يا سلام على دى فخده . . . زبده خالص !

ثم أعاد الغِطاء ، والتفت إلى « دنيا » وقال :

على فِكره . . . أين « الوزة التى بالملوخيّة » ؟

— على الكانون يا سيدى .

— والحمام المشْوِى ؟

— تحت الطلب .

— والكنافة ؟

— جاهزة ، مع القشطة .

ولمعت عينا « أبى المكارم » وأخذ يفرُك يديْه مغتبطاً ، وسمع « دنيا » تقول :

هذه وليمة تليق بالملوك !

— يا سلام ! وهل « حُكّام » أقلُّ من الملوك ؟ إنها « حُكّام » يا وليّة « حكّام » . . . !

ثم لَبِث يُغمغم ، ووجهه يتألّق بالذكرى والأحلام :

حُكّام ! . . . أين أيامُك يا حُكّام ؟

وجعل يروح ويجىء فى الغرفة ، وهو يفكّر فيها وفى أيامها الخوالى . . .

لقد تعرّف بها وهو فى أوْجِ حياته ، فى الأربعين من عمره . . . وكانت حياته فى تلك الحِقبة ضَجّة . . . ضجّة موزّعة بين وزارة الأشغال صباحاً ، والقهوة عصراً ، ومجالى الأُنس ليلاً .

وفى بعض هذه المجالى عَرَفَها ، إذْ كانت مُغَنيَة مشهورة ، و « أُسطى » من العوالم فتنتْ أهلَ عصرها ، فأحبَّ فيها حلاوةَ صوتها ، وسحرَ أنوثتها ؛ وأحبتْ فيه روعةَ رجولته ، ووفرةَ قوته . . .

وتزوّجا . . . وقَضَيَا معاً عشرة أعوام ، قضياها فى حبّ عنيف ، وكره عنيف . فى عِناق وتقبيل ، وعناء وتنكيد . وأخيراً تم الانفصال لِأَوْهَى سبب . . . ومنذ ذلك الوقت لم يرها !

. . . ورفع « أبو المكارم » رأسه ، ووقف أمام « دنيا » وقال فى لهجة الحالم :

عشرة أعوام لم أرها ، عشرة أعوام لم أسأل عنها ، ولم أعرِف من أخبارها شيئاً ، فما الذى دفعنى إلى أن أدعُوَها اليوم ؟ . . . لقد تراءت لى فى غفوة من غفَواتى وهى تبتسم وتشير إلىّ ، ثم سمعتُها تضحك . أجل يا « دنيا » ، رنّت ضحكتها فى أذنى ، تلك الضحكةُ المملوءة بمباهج الحياة ومَفاتِنِها . . . فأحسستُ قلبى يتضرّم على حينِ فجأة ، وكأنّ قنبلة قد انفجرت فيه !

وتوقّف عن الكلام ، ومدّ يده إلى زجاجة نبيذ على المائدة ، فشرب منها بضع جُرُعات ، ثم قال :

لقد رأيتها يا « دنيا » حين أرسلتُكِ لدعوتها ، فكيف هى ؟ أما زالتْ كعهدى بها دائماً ؟

— كالبدر وحياتك عندى !

— حدثينى يا « دنيا » عنها ، عدِّدى لى صفاتِها ، اذكرى لى ما قالته لكِ حين ذكرتِ اسمى لها ... كيف تلقَّت دعوتى إياها ؟ وكيف أمطرَتْكِ بالأسئلة عنى وعن حبى ؟ ... قولى يا « دنيا » وأطيلى !

وطرقتْ سمعَه فى هـــذه اللحظة جَلبَة ، كأنها موكِب زفَّة قادمة ... فأسرع « أبو المكارم » يستقبلها ... إنها هى ، إنه يسمع ضحكتها ذاتَ النَّغَم الرحيب ، تَسبِقها لتعلنَ قدومها ، وتُفسح لها الطريق ...

ودخلت « حُكَّام » تَرِنّ بأساورها وخلاخيلها . قَوام مكتنز باللحم والشحم ، ووجه يلمع بحُسن يوسُف ، ومِشية متبخترة تهتَزّ أرض الغرفة تحت خُطاها المتَّسقة الثقيلة !

وشَعُر « أبو المكارم » بقلبه يتفتَّح تفتُّح المَعِدَةِ الخاوية إذا هبَّت عليها أنفاس الشِّواء ، وأحسَّ دمَ الشباب يتدفَّق فى عروقه . فسار إليها ، وكل شىء فيه يضحك ، يستقبلها كما استقبلها من

قبلُ يومَ عُرسها . رآها أمامه كما كانت فى ذلك اليوم تتلألأ كالماسة تحت الشعاع !

وسلّم عليها سلام مشتاق ، وقال ويَدُه فى يدها :

ياسلام على الإيد اللّى زىّ الملبن دى !

وردت تحيتَه بضَحِكات فيها نُعومةٌ وطراوة ، ثم دارت بعينيها فى الحجرة ، وعلى المائدة ، وقالت :

حقاً لم تنس شيئاً . . . الفــلّ يغطّى القُلَل ، وسلطة الشكشوكة والمخلّل و . . .

فقاطعها « أبو المكارم » وهو يرفع أمامها غِطاء الصِّينِيَّة ، وقال :

والفخده ام بطاطس ؟

— الله . . . !

ولامس فَخِذَها فى جُرأة ، وهو يقول وعيناه تلمعان :

فخدَه مستويّة أوى !

فردتْ يده ، وهى تضحكُ ، متراخِيَة . ثم قالتْ فى صوتٍ ليّن كأنها تغنّى :

كل شىء وَفق المرام !

وجلسَتْ معه على المتّكإ ، وأحاط كل منهما الآخرَ بذراعه ، وصمَتا برهة . . . ثم قال « أبو المكارم » :

تُرَى هل أنتِ مسرورة مع غيرى يا « حُكَّام » ؟

— كما أنتَ مسرور مع غيرى !

— من أدراكِ أنى مسرور ؟

— عشْر سنين لم تسأل عنى فيها مرةً واحدة . . .

— يعلم الله كيف كنتُ أُفكِّر فيك !

— أنتم الرجال لا تفكِّرون فى أحد . . .

— والسِّتَّات . . . ؟

— يا حسرة علينا . . . أنحن لنا غير قلب ؟

— أتذكرين عهدنا الذى مضى ؟

— أيام لا تُعوَّض . . .

— يا ليتَ الذى جرى ما كان !

— كل شىء قسمة ونصيب . . .

ورفع « أبو المكارم » بصرَه إلى المائدة ، فقابلَت « الفخده » عينيْه وهى تلمع تحت السمن والمرَق . فتَلمَّظَ بريقه ، ومدَّ يده إلى ذراع « حُكَّام » ، فتَحَسَّسَها بِرِفق ، وهو يقول :

يا سلام على الموز الأصلى !

(١٣)

ولم تحرّك « حُكّام » ساكناً هذه المرة ، وظهر عليها التَّطَامُن والاستسلام ، فاسترسلت فى ضَجْعَتِها ، وأشعلتْ لِفافة ، وأخذت تنفُثُ دخانها فى وجهه وهى تضحك . ثم سَمِعَتْه يقول :

كيف قضيتِ السنين العشر يا « حُكّام » ؟

— قضيتُها كما تقضى كلُّ امرأة مِثلى حياتَها . . . ليالى حظِّ أُحييها بالغِناء حتى الفجر . وأيامٌ أقطعها نوماً . ورجال أبدّلُهم كما أُبدِّل جواربى . . .

— حاذِرى فيما تقولين ! . . . أىَّ رجال أردتِ ؟ . . . وكيف لكِ أن تَجْرُئِى على التفوّه بمثل هذا الكلام أمامى ؟

فأطلقت « حُكّام » ضحكةً عالية ، ومالت عليه بكفِّها تقول :

والنَّبِى تِتْلِهى !

فضمها الرجل ضمة قوية ، ومدّ رأسه ليقبّلها ، فوجدها تُدنى شفتيها منه ، وقد أسبلتْ جفنيها . . . وحدّق بنظره فيها ، ثم مدّ يدَه إلى المائدة ، وأخذ قِنِّينَةَ النَّبيذ ، وكرع منها طويلاً ، ثم ناوَلَها إيّاها . وقام على القَوْر فاقتطَعَ من « الفخذة » قطعة ضخمةً دسَّها بين شِدْقَيْه ، ثم اقتطع أخرى قدَّمها إليها . . . كان يفعل ذلك باهتمام شديد ، وعيناه

لا تفارقان الصِّحاف ، على حين أن « حُكَّام » كانت تنظر إليه دَهِشَةً تُسائل نفسَها : لماذا لم ينل منها القُبلةَ التى همَّ بها ؟

وقاما إلى المائدة ، وقد أحس « أبو المكارم » شيئاً خفيًا يُقلقه ، شيئاً لا يعرف كُنْهه . . . ولكنه لم يُولِهِ اهتماماً ، بل جلس أمام الطعام يَتغَزَّل فى أطايب ألوانه ، ويصف لـ «حُكَّام» محاسنَه ، وكيفيةَ صُنعه . واندفع يضحك بلا سبب ، مُحاولا أن يثير البهجة فى جو الحجرة . فاندفعتْ « حُكَّام » تضحك أيضاً ، وهى لا تدرى لماذا تفعل !

وصاح « أبو المكارم » بـ « دنيا » لتُحضِرَ له بقية الطعام ، وأخذ يُؤَنِّبها بأقبح الألفاظ . . . وتجاوبت الحجرةُ بالضجة التى أثارها الرجل ، ثم لم تلبث أن عَمَّها السكون !

وتنهّدت « حُكَّام » ، فنظر إليها « أبو المكارم » نظرةَ مستفسِر ، وقال :

ما الذى يحزنك ؟

— تذكرتُ اليوم الأخيرَ الذى أمضيتُهُ فى هذا المنزل !

— أمرك عجيب يا «حُكَّام» ... وهل هذا وقت التفكير فى مثل هذه الأمور ؟ فكِّرى فى شىء آخر ... مثلا ... يومَ

ذقتِ منى « العلقة » الحامية فى هذا الركن . أمتذكرة أنتِ ؟

ومضى يقهقه فى صوت كريه ، فقالتْ له :

و يومَ شَجَجْتُ رأسَكَ ، إذْ رميتُكَ بالقُلَّة ... أمتذكر أنتَ ؟

وراحت تقهقه أيضا ، ولكن فى شىء من التكلُّف !

وأخذا يتراشقان بالنُّكات ، ويتداولان النوادر والفُكاهات ، وهما يتمايلان ويتقارصان . . .

وأخيراً جاءت « دنيا » بالكُنافة ، فهلَّلا لها وكبَّرا . وأقسم « أبو المكارم » لصاحبته أن يُطعمَها منها بيده ، فلا تَمسَّها أناملُها . فجعل يأخذ من الكنافة مِلْءَ كفِّه ، ويحشو به فمها بين الضحك والضجيج . . . !

وبغتة صرخ متألما ، وقال :

أعوذ بالله ! . . . ما أقبحَ هذه المعابثة ، لقد جرَحْتِ إصبعى .

. . . . وانتهى الطعام فقاما ثانيةً إلى المتكإ متثاقلين ، وانطرحا عليه ، تتردّد أنفاسُهما فى صعوبة وعُسر .

وحضرتِ القهوة ، وأخرج « أبو المكارم » من جيبه « حُقّ العنبر » وأخذ منه قدراً على طَرَف عود كبريت ، وجعل يُذيبُه فى القهوة ، ويقول :

ما أَنْفَسَ هذا العنبر يا « حُكَّام » ، عنبر أشهبى أصلى من أعلى صنف ، منقٍّ للدم ، ومُقَوٍّ للعضلات . . . إنه لا يفارقنى أبداً ، وأنا مَدِين له بتجدُّدِ شبابى . . .

وكشف عن ساعدِه ، وقال وهو يلوِّح أمامها به :

انظرى ، ذراعٌ مثل الحديد ، ويد كأنها يد السبع !

فرنّتْ لِـ « حُكّام » ضِحْكَةُ استهزاء ، انتفض لها « أبو المكارم » وقال :

أَمَا تُصَدِّقِينَنِى ؟

ولمستْ كفَّه بأصابعها ، وقالت :

يدٌ ناعمة ، كأنها يدُ طفل !

فاحمرّ وجهُ الرجل ، وحملق فى وجهها ، وهو يَفْتِل شاربه . وقال :

أتهزئين بى ؟ طيّب . . . سأُريكِ !

وضغط ذراعَها بشدّة ، فصرخت المرأة تستغيث . وأراد أن يمدَّ يده إلى صدرها ، ولكنه لم يفعل ، وأحسَّ يَدَه تتهدَّل إلى جانبه .

وصمتا برهة ، واشتدتْ عليهما وطأةُ الخجل ، ثم عادا إلى

الـكلام ينتزعانه انتزاعاً . . . أسئلة مختصرة ، وردود قصيرة ؛ ثم استجداء للهواء ، مصحوب بتنهدات .

وأخيراً مالا برأسَيْهما ، فأغْفَيا !. . .

واستيقظ « أبو المـكارم افندى » فإذا بضيق يَغزُو صدرَه ، فنهض عَجِلًا ينظر فى ساعته . ثم تلفَّت حوله ، فإذا بالشمس قد مالت للغروب ، وبدأت غياهب المَساء تزحف على الحىّ .

ووقف يتأمّل « حُـكام » وهى فى نَعْسَتِها ، وقد بسطتْ ذراعيها ، ومَدَّت ساقيها ، فملأت المتّـكأَ ، وجعلت تتنَفَّسُ مجهودةً كأنها فيلٌ يُحْتَضَر !

[illegible] على أطراف أصابعه ، ونزل يريد الطريق ، فَلَقِيَتْه « دنيا » بالباب ، فابتدرها بقوله :

أصاحية أنتِ يا «دنيا» ؟... «حُكام» نائمة ، و يجب ألَّا تُقْلِقِهَا... لولا أن « بيومى » افندى ينتظرنى الآن لأمرٍ مُهِمّ لما تركتها . . . قولى لها : الأيام بيننا ، والقلوبُ عند بعضها !

وتركها وخرج ، وأشعل لِفافة . . . وأخذ يفـكِّر : أصحيح أنه على موعد مُهِمّ مع « بيومى افندى » ؟

وابتسم ابتسامة عريضة ، وأرسل تَنَفُّسَة ارتياح !

غرامِ قدیم

غر ، يم

كنتُ فى العشرينَ من عمرى يومَ عرَفتُ « روحيَةَ » الراقصةَ وأنا وقتئذ موظَّف فى ديوان الحربيـــــة ، التحقتُ به مباشرةً بعد نيلى شهادةَ الدراسةِ الابتدائية .

عرَفتها فى قهوة رقصٍ شهيرة ، وكانت فتنـةَ أهل زمانها ، تزدحم القهوةُ بأُناسٍ من مختلِفِ الطبقات كلَّ مساء من أجلها . ولم تكن « روحية » بالراقصةِ العاديَّةِ تعرض أمامَ الجمهور ما يَعْرضه غيرُها ، لـكنها كانت متفنِّنَةً تبتكر الرَّقصات الغريبة ، وتُنوِّعها دائما ، فتسلُب عقولَ الناس . وكان لها بجانب ذلك ذوق رائعٌ فى اختيار الملابس ، ولا سيما ملابسُ الرقص ، فهى تظهر كل ليلة بـ « فستان » جديد ، بل إنها لتغيرُ ملابسَها فى الليلة الواحدة غيرَ مرة . . .

كان الذهب يتناثر تحت أقدامها من كل صَوْب ؛ فلقد كانت كثيرةَ العشَّاق . . . ولكن ليس لها إلا خليل واحد ، صُعلوك من صغار المغنِّين ، أصبح له بفضلها مكانةٌ ممتازة فى القهوة ، وكلمة مسموعةٌ فيها . ومن عَجَبٍ أنه كثيراً ما يتعاظم

عليها ويُهينها ، ويطلب النقودَ منها فى قِحَةٍ وجُرْأَة ، فلا تَلبثُ أن تُلَبِّىَ رغبته صاغرة خاضعة !

وكان من سوء طالعى أنى تعلَّقْت بها ، وافتتنتُ بحبها ؛ فكنتُ أذهب إلى القهوة كلَّ مَساء ، وأمكثُ فيها حتى ساعةَ الإغلاق . ثم آخذ طريقى إلى الحارة المظلمة — حيث بابُ القهوة الخَلْفىّ — وأقف بجواره منتظرا خروجَها . وكنت أَلْقَى فى ذلك ألوانا من العذاب ، ولا أجد السبيلَ إلى بدء التعارُف بينى وبينها . . . وأين يقع ما أملِكُ من تلك الثَّرَوات التى كانت تنهار وتختفى تحت قدميها ، دون أن تُنيلَ أصحابَها حُظْوَةً أو تُمهِّدَ لهم الفوزَ بمأرَب ؟ !

وحَدَث ما لم يكن فى الحُسْبان أن يحدُث . . . كنت ذاتَ ليلة بمكانى فى الحارة المظلمة ، بجوار الباب الخلفىّ للقهوة ، أترقَّب خروجَها كعادتى ، وبعد طول انتظار رأيتُها تجىء بمفردها ، وتَلَفَّتَتْ حولها ، فوقع نظرُها علىّ ، فنادتنى فى لهجة السيد الآمِر قائلةً :

اذهب يا « جدع » ، واطلب لى عربة . . . حالاً .

فانطلقتُ على الفور أعْدو ، وجئتُ بالعربة لها ، وطغَى عليّ شعورُ زَهْو وانتصار لم أُحِسَّهُ فى حياتى من قبل .

وركبَت العربةَ دون أن تُعْنَى بى ، فوقفتُ فى مكانى برهة كالمصعوق . وبغتةً شَعَرتُ بقوة تدفعنى إلى اللَّحَاقِ بالعربة ، فهرولتُ وراءها حتى أدركتُها ، وتعلَّقتُ بظهرها كما يفعـــل الأولاد العابثون !

وسمعتُ بعضَ السابِلَةِ يصيح : « ورا يا أسطى ... » فإذا بسَوْط السائق يَلْسَعُ كَتفى غيرَ مرة . ولـكننى لَزِمتُ مكانى حتى بلغتْ بنا العربة مستقرَّها . فلما شهدتُ « روحية » تغادرها بادرتُ بالاختفاء فى مكان مظلم قُبالَةَ منزلها . وكنت أسمع وَقْع قدميها وهى تصعَد الدَّرَج ... وهى تفتح الباب ... وهى تتحدث إلى خادمتها ...

كنتُ أسمع هذا كلَّه بوضوح غريب كأننى معها ، أتتَبَّعُ خطواتها أينما تَنَقَّلت . وتواردت عَلَيَّ أخيلة شتى : زَينتْ لى نفسى أن أقتحم دارها ، فأختطِفَها وأنهالَ عليها لثمًا واحتضانًا ، وأظل أعدو بها حتى أبلغَ منزلى غيرَ آبهٍ بشىء فى الوجود ... ولبثتُ مكانى وقتًا غيرَ قصيرٍ وقد ازدحمتْ فى رأسى الهواجس ،

فتَصوَّر لى أنى وإياها فى مخدَع وقد تمدَّدتْ على الفراش ، وأخذتُ مكانى تحت قدميها على الأرض ، واستسلمتُ لنوم هنىء تُفعمه الأحلام . . . وشعرتُ كأنها تَهزُنى ، ففتَحتُ عينى مستبشراً بطلعتها الجميلة ، فما راعنى إلا أن أرى أحدَ العمالِ يُوقظنى ، وينبهنى إلى وجودى الغريب فى هـذا المـكان . فنهضتُ ضَيِّقَ الصدر شديد التَّحَسُّر ، وكانت الشمس قد بدأت تبسط على الوجود أشعتَها اللَّيِّنة .

وفى المَساء قصدتُ قهوة الرقص كعادتى ، وعند انقضاء السهرة ذهبتُ إلى الباب الخلفىّ فى الحارة المظلمة أنتظر خروجَها . وما إن انفتح الباب ، وظهر شبحُ « روحية » الأَهْيَفُ ، حتى خطوتُ نحوها بضع خطوات . وواجهتُها فعرفتنى ، وابتسمتْ لى ، ثم طلبت مني كالمرة السابقة أن أُحضر لها عربة ، فمضيتُ مسرعاً وجئتها بها . ولما ركِبتْ صعِدتُ إلى جِوار السائق فجلستُ ، وحَسِبنى الرجل من أتباعها فلم يعترض . . . ولا تسل عما شَمِلنى فى ذلك الوقت من سرور واغتباط .

فلما وصلنا ، وثبتُ نحو سُلَّم العربة وأسندتُ مولاتى حتى الباب ، ولكن « مولاتى » لم تبد اكتراثاً بى ، ومضت فى

المنزل لا تلوى على شيء . وتَسَمَّرْتُ فى موقفى ، والحَيرةُ تَعْبَثُ بى . . . هل أَتْبَعُها ؟ . . . هل أنتظر لعلها تُرسل فى طلبى ؟ . . .

وبينما أنا فى غمرتى إذْ تنبهتُ لوجود شخص على مقرَبة منى ، فتبيَّنته فإذا به « الشربينى » المغنى الصُّعلوك ، رفيق « روحية » . . . وكان ينظر إلىّ شزْراً ، فاضطربتُ فى موقفى ، ثم غادرتُ المكانَ أغمغم !

وقهقه الرجل ضاحكا ، وشيَّعنى ببصقة وَقِحَة ، ثم دخل المنزلَ وردَّ الباب بعنف ؛ فأردت الرجوع لأضرب هذا الوغْد ، ولكنَّ قدمَىَّ كانتا مُجِدَّتَيْن فى السير إلى منزلى . . .

وفى الليلة التالية جريت على عادتى فى الوقوف بباب القهوة الخلفىّ ؛ ولمحتُها خارجة . ولم تكن منفردةً هذه المرة ، فقد كان معها « الوَغْد » ، ورأيته يَحْدِجنى بنظرة احتقار ، شفَعَها بضِحْكَةٍ عالية مستَهْتَرة ، وشاركتْه « روحية » فى الضحك ، ومرّا بجانبى ، وركبا عربةً على رأس الحارة .

ومرتْ ليلتان لم يجدَّ فيهما شيء . . . وحدث فى الليلة الثالثة ، وكنتُ فى القهوة ، أن أعارتنى « روحية » لفتةً منها ، فقد

نظرتْ إلىَّ مبتسمة ، ونادتنى بلهجتها الآمِرَة :

تعال يا جدع انت !

فهرولتُ نحوها ، والأمل يفسَحُ لى ، وقلتُ :

— خِدمة يا ست ؟

فأجابتنى وهى ترسل دخانَ لِفافتها غيرَ مُبالِية :

أين الحاجّ « سفيطة » ؟

فرُحتْ على التوِّ أُنادِيه .

ذلك كلُّ ما كان فى تلك الليلة بينها وبينى !

. . . . . .

ونبتتْ بينى وبين « روحية » على توالى الأيام عَلاقة عابرة ؛ إذْ كثيراً ما كَلّفَتْنى أعمالاً هَيِّنة ، كمُنادَاةِ الحاجّ « سفيطة » ، أو إحضار كُوبٍ من ماء ، أو نحوه . ولكنها فيما دون ذلك لم تكن ترحَمُنى من احتقارها . وكل ما كانت تُنيلُنى إياه من عطف ، بضعُ ابتسامات شحيحة تمتنّ بها علىّ ، كما يَمْتنُّ البخيل بدرَيْهِماتِهِ على سائليه . وكان لهذه الابتسامات تأثير عجيب فى نفسى ، فكأننى أُبعث من جديد . ولكن سُرعانَ ما تعود إلى إزرائها بى ، وصَلَفِها علىّ ، فيعود إلىَّ يأسى

وحسرتى . وكانت تناديني دائماً : « يا جدع » ولم تهتمّ مرةً أن تسألنى : ما اسمى . وكل ما عرَفَتْه عنى أننى من جلساء قهوتها ، ومن صَرْعَى جمالها المُتَدَلِّينَ بحبِّها ! . . .

وأَمْعَنَتْ مرةً فى إذلالى ، فثُرْتُ فى وجهها قائلاً :

ماذا فعلتُ بك لِتُمْعِنِى فى إهانتى هكذا ؟ أنا لستُ خادماً عندك ، أنا موظّف فى الحربية !

فرمتنى بِضِحْكَةٍ عاليةٍ ، وقالت :

موظف فى الحربية . . . أهلاً وسهلاً !

ثم مدتْ قدمَها فى وجهى ، وقالت :

انفض التراب عن حذائى يا حضرة الموظف فى الحربية . . . !

وكان فى وُسعى أن أتناول كُرْسِيًّا ، فأُحطِّمَه على رأسها . . . ولكنى وجدتُ نفسى أتقدّم نحوها ، أتكلَّف الابتسامَ ، وقد بدأتُ أنفُضُ حِذاءها بمنديل وجهى ! !

أما صلتى بـ « الشربينى » فأعجب من العجب . . . كلٌّ منا يتجاهل صاحبَه ، ولا يحسِب له من وجود !

كان الرجل يقف فى مكانه بجوار المسرح ، معتمداً على الحاجز ، بقامته المديدة ، وجسمه العريض ، وقد أمال طربوشه ، وطفِق

يَفْتِلُ شاربه المُرْهَف ، يرمى القاعة بابتسامة التعاظم ، ويرمُقُها بنظرة الاستخفاف . . . فإن وقع بصرُه علىَّ ، اختلجت شفتاه اختلاجةَ ازدراء ، فأُصوِّب إليه عينى ، ثم لا ألبث أن أحوِّلَ عنه وجهى !

كنتُ أحترق على مَهَل ، محتملاً شتى ألوان المذلة والهوان ، دون أن أحظَى منها بشىء . وبانَ لى أنه ليس ثَمَّةَ إلا سبيلٌ واحد يُدنينى منها . . . المال ! لا شىءَ غير المال . . . ولكن من أين لى هـذا المال الذى أستطيع به منافسةَ محبِّيها فى اجتذابها إلىّ ؟ !

وكنتُ أعرِف أن نصيبَ أختى من ميراث والدتنا خاتَمٌ من الماس ، يُقدَّر بعشرين جنيهاً ، وهو ما يزال فى حَوْزَتها . فذهبتُ إليها ، وقصصتُ عليها حكايةً ملفَّقة تتضمن تورطى فى ضمان صديق ، واضطرارى إلى دفع هذا الضمان ، وأنى إذا لم أدفعه فى حينه تعرَّضتُ لحكم قضائىّ ، فيه بلا ريب قضاء على مستقبلى . ورجوتُ منها أن تعطينى الخاتَم لأرهنَه ريثما أجد السبيلَ لتدبير المال ، ثم أُعيده إليها سالماً . . . وكانت أختى أسَنَّ منى ، وقد نشأتُ فى كنَفها فأحبَّتْنى . فلم تَضَنَّ بالخاتَم علىّ ، فذهبتُ به

إلى السوق وبعتُه ، وعَمَرْتُ جيبي بمبلغ لم أكن أحلُم أنه يَسْلَسُ لى يوماً من الأيام !

وفى المساء قصدت قهوة الرقص ، دخلتها بخطوات سريعة غيرِ متزنة ، تلتمع فى رأسى شَتَّى الخواطر ؛ وجلست فى مكاني الذى اعتدت أن أجلسَ فيـــه ، حتى انتهى القسم الأول من البَرْنَامَج ، ومر بجانبى « سفيطـة » المُطَيِّب ، فاستوقفْتُه ، وقلت له :

تعال ، أريدك فى مسألة .

فأجابنى ، وهو يُتابع سَيْرَه :

اتركنى . . . أنا مشغول !

فقمت إليه ، ودَسَسْت فى يده مبلغاً من المال ، وقلت له هامساً :

لك أضعافُ أضعافه إذا هيّأتَ لى خَلْوَةً بروحيّـة هذا المساء !

فنظر إلىّ الرجل فى دهشة ، فأخرجتُ محفظتى أمامه ، وأخذتُ أقلِّب ما بها من أوراق مالية ، ففَغَر فاه ، فلاحقتُه بقولى :

سأُنْعِشُك بمبلغ كبير إذا هيأتَ لى الليلة خَلوةً بها !

— انتظرنى حيث أنت . . . وسأعود إليك .

فعدتُ إلى مقعَدى ، أحاول الجلوس ، ولـكننى لم أستطع أن أستقرّ ، كانت أعصابى شديدةَ اليقَظة ، فمضيت أروح وأجىء مُقَسَّم البـال . . . ولم تطُل غيبةُ الحاج « سفيطة » فعاد إلىّ يَهْمِس فى أذنى :

إنها تنتظرك وحدها فى الحجرة الثانية على اليمين .

. . . . . .

كنتُ أعرِف هذه الحجـــرة ، وأعلم أنها المكانُ الذى تَخْتَـلِي فيه هى ورفاقُها ، وكم من مرةٍ جلستُ غيرَ بعيدٍ أَرْقُب بابَها الصغير الأخضر ، وأنا مستسلم لأحلام مُضْنِية . . . وكان يُخَيَّـلُ إلىّ أنها حجرة متسعة فخمة ، مؤثثةٌ بالثمين من الرياش ، يضيئها نور أحمرُ مُوقِظٌ للعواطف !

سرت وأنا شامخ الأنف ، أتلَفّت حولى ، لعلى ألقَى « الشربينى » فأُطفِئَ غليلى بنظرةِ تَشَفٍّ أَحْدِجه بها ، ولـكنى لسوء حظى لم أره !

. . . وفَتَحْتُ باب الحجرة فى تَمَهُّل ، ودخلتُ ، فإذا بـ « روحيـــة » جالسة على مقعدها تتلألأ كالثُّرَيَّا فى لَبُوس

(١٤)

الرقص البديع الذى يكشف عن محاسن جسمها . . . وكانت تبتسم والعطر يفوح منها ، كأنها صُحْبَةٌ من الورد النضير !

وشعَرتُ بتخاذل وتَهيُّب ، ورأيتُنِي لا أكاد أقوى على الوقوف ، فاستندتُ إلى الحائط ، وأخرجتُ منديلى أمسح به وجهى . لأسمعها تقول :

تعال ، تفضل اجلس !

فاستَثَرْتُ بعضَ شجاعتى ، وسرتُ نحوها بَطِيءَ الْخُطاَ ، فأشارتْ إلى مقعَد بجوارها ، وقالت وهى تبتسم ابتسامتَها الجميلة :

تفضل ، تفضل . . . الدنيا حر ، أليس كذلك ؟

فأجبتُ وأنا أحاول الابتسام :

صحيح حرّ ، حرّ جدًّا .

— هل لك فى كأس من الشمپانيا المُثَلَّجة ؟

ولاحظتُ على مقربة منا مِنْضَدَةً صغيرة عليها زجاجة « الشمبانيا » وكأسان . . . وملأتْهُما ، وناولتنى كأسى ، فشربتها دَفْعَةً واحدة لأهْزِم بها ضعفى ، وشعرتُ كأن ناراً قد شَبَّتْ فى جوفى . ولكنى تماسكت . وسمعت « روحية » تقول :

شمبانيا من النوع المتوسط ، لا بأس بها على كل حال !

وتصاعد اللَّهَب إلى وجهى ، ورحتُ أفكِّر فيما يجب أن أقولَه لها ، كيف أبدأُ حديث « المناوشات » . . . يالَلَّه ! ! شَدَّ ما هو صَعْبٌ عَلَى حديث العهد بالحب أن يستهلَّ المغازلة مع غانية أصيلة كـ « روحية » ، كلُّ أيامها ولياليها غرام متواصل . . . وملأنى السُّخْط على نفسى . . . أأبقى لا أنبِسّ بكلمة واحدة ؟ إلى متى هذا الصمتُ المُزْرِى ؟ حتى وجهى لم أرفعْه إليها ! أفأظَلُّ مكتفياً بالنظر إلى قدميْها البديعتيْن ، وقد أخذتْ تهزُّهما فى دلال ؟ . . ها هو ذا موضوع طريف ، يمكننى أن أتكلم فيه : حذاؤها الوردىّ المُوَشَّى بالذهب . . . أبدأ بإطرائه ، ثم بإطراء ذوقها فى اختياره . وبعد ذلك أسألُها عن ثمنه . . . وهكذا . . . ولكن أليس من قلة الذوق أن أبدأَ حديثى معها بالحذاء ؟ . . . أكاد أختنق . . .

وسمعتُها تقول وهى تصب « الشمپانيا » فى كأسى :

أأعجبتكَ الليلةَ رقصتى ؟

وشربتُ هذه الكأس دَفعةً واحدة ، ثم رفعتُ رأسى ، وقد شعرت بالنار تَتَّقِد فى عينىَّ ، وبدأت أجد على الفوْر روح المغامرة تَسْرِى فى أوصالى ، فضحكتُ ، وقلت :

رقصتك . . . يا سلام . . . شيء مدهش . . . شيء عظيم !

وضحكتُ ، فضحكتْ هى أيضاً ، وقالت :

أصحيح أعجبتْك ؟

— شيء من وراء العقل !

وعجبتُ من نفسى ، أأنا الذى أتكلّم ؟ إن الجملة الأخيرة التى قلتُها تناسب المقام أحسنَ مناسبة ، ويجب أن أُتْبِعَهَا بقولى : « وجمالك أيضاً يا روحية شيء من وراء العقل ! أنا أحبك ، أنا أعبدك ، خبريني ماذا تريدين منى أن أفعل فألبّى مُسْرِعاً ؟ . . . »

وأمسكتُ بطرف المِنضَدَة ، وحدّقت وقتاً فى وجه « روحية » ، ثم وجدتُنى أندفع حزينَ اللهجة قائلا :

لماذا تكرهيننى يا روحية ؟

— أنا أكرهك ؟

— إنكِ تمْعِنِينَ دائمًا فى احتقارى !

— أما عبيط صحيح . . . أنتَ لا تعرف شيئاً من أمور الحب . . .

— أمور الحب ! ؟

فجعلتُ أُفكِّر ، أيكونُ ما حسِبتُه احتقارا ، نوعا من الخُدَع الغرامية المألوفة ؟ لقد سمعتُ الكثير من أساليب المغرَمين ، كلُها مفارَقات . فبينما يعبد المحبُّ محبوبته ، نراه يُصْلِيها شتما ، ويُتْخِنُها ضربا . . .

ومددتُ يدى لأقبضَ على يدها ، وقلت :

— إذن أنت تحبيننى . . .

فأرسلتْ ضِحْكَةً عابثة ، وأجابتْ :

— أنت جدع لطيف . . . ولكن ، خَلِّيها فى سرك . للحيطان آذان ...

وخطر الوَغْدُ فى ذهنى على الفَوْر . . . فأقبلتُ على زجاجة « الشمپانيا » ، وملأتُ كأسى ، ثم أفرغتُها فى جوفى ، وصرخت :

هاتوا شمپانيا . شمپانيا . . . أنا قتيل الشمپانيا الليله دى . . . ! !

واندفعت أدبِّر الخُطَطَ الجهنميّة للقضاء على « الشربينى » . . . وشعَرتُ كأن الحجرة تدور بى . . .

وسمعت « روحية » تقول وقد مالتْ عليّ :

إنهم يستدعوننى للرقص . سأقابلك هنا بعد حين .

وخرجتْ . فتركتُ الحجرة بعدها أُقهقه ، وأنا أحسَب نفسى سيدَ هذا الكون ... ودُرْتُ بعينىّ فيما حولى ، أبحث عن الوغد ، فلم أجد له من أثر ، فتأكد لى أنه هرب منى . فذهبتُ إلى مكانه الذى اعتاد أن يقف فيه ، واستندتُ إلى الحاجز الذى بجوار المسرح كما كان يفعل ، وأمَلْتُ طربوشى ، وفَتَلْتُ شاربى ، ثم أخذت أرْمُقُ الناسَ بنظرات الاحتقار !

ولما ظهرتْ « روحية » على المسرح ، ضَجَجْتُ لها بالهُتَاف والتصفيق ، وشرعتُ أفرِض سلطانى على الجمهور ، فآمره بالصمت فى المواضع التى أرى أنه يحسُن فيها الصمت ، ثم أُحَمِّسه فى المواضع التى أشعر أنها تستوجب الحماس !

. . . وطلبت أن يأتونى بخمر أشربها فى وِقْفَتى تلك ، فشربتُ ، ثم شربت . . . وأخذتِ الأنوار ترقُص لعينىّ ، والناس يتداخل بعضهم فى بعض . . . وتزاحمتْ علىّ المشاهدُ الغريبة : رأيت « روحية » تعاقرنى « الشمپانيا » فى الحجرة المعهودة مرةً أخرى ، وأظننى قبّلتُ يدها . . . وأذكرُ أنى

تناولت قفا الحاجّ « سفيطة » بصفعتين ، وأخذتُ بتلابيب رجلٍ من فرقة الموسيقى !

وأخيراً استيقظتُ فإذا بى مُمَدَّدٌ بملابسى ... فى حجرة نومى !

. . . . . .

ولبثْتُ اليومَ التالىَ مُتْعَباً أُعانى دُواراً شديداً ، وعلى الرغم من ذلك اعتزمتُ الخروج ، وتمضيةَ الليلةِ فى قهوة الرقص . . . ووقع بصرى على المِحفظة الحاوية ، فتألمتُ ... و« روحية » ! . . . إنها تنتظرنى ولا شك . . . ستبحث عنى . . . ابتسامتُها لى . . . ملاطفاتُها إياى . . . القبلةُ التى طَبعْتُها على يديها . . . و « الشمپانيا » . . . والضجيج . . . وهذا الانتصارُ العظيمُ الذى أحرزتُه على « الشربينى » . . .

وخرجتُ مهرولاً إلى صديقٍ كريم !

. . . . . .

لقد دَهَمْتنى مصيبةٌ كبرى ، فلم أجد سواك مُنْقِذاً لى منها . . . سيُقْضَى على شرفى . . . ثِقْ أن مالَك فى أمان ، وسيُرَدّ إليكَ فى القريب .

. . . . . .

وخرجتُ وجيبى عامر ، وتوجهتُ من ساعتى إلى قهوة الرقص ، وقضيتُ ليلةً صاخبة . . . زجاجات « شمپانيا » و « كونياك » . . . الحجرة المعهودة ذات المِنْضَدَة والمقعَدين . . . و « روحية » بابتسامتها الجذَّابة وحديثها الطَّلِيّ . . . والمسرح . . . والأنوار . . . والهُتاف . . . وقبلة اليدين . . . والنار التى تتأجّج فى جوفى . . . كل ذلك و « الشربينى » مُختَفٍ كأن الأرض قد بَلَعَتْه !

. . . . . .

. . . وبِتُّ حِصَّتِى فى منزلنا لأختى . . . وتثاقَلَتْ علىَّ الديون ، وأنا لا أنقطع عن الذهاب إلى قهوة الرقص ومقابلة « روحية » ، كأن حبى لها قد تحوَّلَ إلى جنون ؛ جنون ثائر كأنه بركان ، لا أستطيع ، مهما أحاول ، أن أخمد منه اللهيب ؛ بركان يلتهمنى جسما وعقلا وروحا . . . غرام أَهْوَجُ شِرِّير أخزانى وأذلَّنى !

ولما سُدَّتْ فى وجهىَ السُّبُل ، ولم يعد فى استطاعتى الحصول على مال ، شكوت لـ «روحية» حالى ، أسترحمها ؛ فظهر «الشربينى» فى ذلك الوقت ، وشَمَخَ بأنفه ، وتعالى بصوته ، ونظر إلى

حِذائه الضخم الثقيل ، ثم التفتَ إلىّ . . . وفى لحظةٍ وجدت نفسى طريحا فى خارج المكان !

. . . .

وفى اليوم التالى لهذه الحادثة ، انتقلتُ مع أختى إلى الريف — موطِننا القديم — فقضَيْنا شهراً استطاعت أختى أثناءه أن تَقْضِىَ بعضَ ديونى . وكانت لا تزالُ تعطِفُ علىّ . . .

وانتهى إلىّ أن وظيفةً خاليةً فى السودان ، فلم أترددْ فى التقدُّم لها . . . إنها فرصة تُبعدنى عن مصر ، ووسيلةٌ تنسينى مخازىَّ فيها !

وأُجيبَ فى ذلك طلبى ، وأخذتُ طريقى إلى السودان ، وقد أقسمتُ ألَّا أعودَ إلى القاهرة ما دامت هذه الراقصة حيَّةً تُرْزق !

* * *

ومرتِ الأيام والشهور ، فبَرِئْتُ من دائى الوبيل ، ولم تعد تَخْطِر لى « روحية » بفكر . وطابت لى الإقامة فى الخرطوم ، واستقدمتُ أختى ، ثم تزوجتُ من سودانيــة مليحة ، فأعْقَبَتْ لى ذرِّيَّةً صالحة ، أفاضت على حياتى نوراً جديداً . . . .

خمسةَ عَشَرَ عاماً فى السودان تغيرت حياتى أثناءها كلَّ التغير، فأصبحتُ رجلاً رزيناً عاقلاً، معروفاً عند الناس باستقامتى وحبى لبيتى، وعشتُ كذلك عيشةً راضية لا يشوبها كَدَر.

واستيقَظَ بين جوانحى بغتة حنينٌ غريب لِمصر، إلى الوطن الأول، وتخايلتْ أمام عينىَّ ذكرياتٌ حُلْوَة، وتواردَتْ على ذهنى وجوهٌ عزيزة، ومَغَانٍ حبيبة... فاستأذنتُ فى عُطْلَة، فمنحونى إياها، وشددتُ الرِّحَالَ إلى القاهرة...

وحدث أن كنتُ مع رَهْط من الأصدقاء ذاتَ مَساء، نتناول العَشَاء فى مطعَم، فأَجْمَعْنَا رأيَنا أن نقضىَ سَهْرَتَنا فى مكان طريف، فاقترح بعضُنا أن يكون ذلك قهوةَ «المعلِم جميمه» فوافقناه عليها، وأخذنا طريقنا إليها، وكانت فى نهاية «روض الفرج». ودخلناها، فألفيناها قهوة بلديَّةً حقيرة. وبادر إلينا «المعلم جميمة» بنفسه، فاستقبلنا بحفاوة، وقادنا إلى مكان حَلَفَ أنه أفضل موضع يَخُصُّ به دائماً ضيوفَه الأعيان... ولم يكن فى القهوة سوى بضعةِ أشخاص تدل سِمَاتُهم على أنهم من الطلبة. وكان النور ضعيفاً والجوّ حارًّا والهواء محتبساً. وتكاثر البعوض، وبدأ مداعباتِه المقوتة، واستحوذ علينا صمتٌ غريب، تبادلنا فيه

التثاؤب ، وجعلنا نتململ ونأسَفُ لِحُضورنا . . . فهبَط علينا « المعلم جميعه » ومضى يُؤَهلُ بنا ويُرَحِّب ، ثم أخبرنا أن حفلة الغِناء والرقص ستبدأ بعد قليل .

. . . . . وأخيراً ظهرت المغنية ، ولا أدرى من أين دخلتْ . . . وكانت أمامنا دَكَّة عالية ، لم نُعرْها اهتماماً من قبل ، فإذا بالمغنية تعتليها هى والعوّاد وصاحب الرَّقّ ، باديةً عليهم مظاهرُ البؤس والضعة فى أشنع صورة . . . وانقضى فصل الغناء كما بدأ ، ونحن ما نزال نتثاءب ، والبَعُوض ما يزال مصرًّا على مداعبته إيانا ، وإخواننا الطلبة « يُقَزْقِزُون » اللُّبَّ ويتضاحكون . ولم أسمع إلاَّ مرتَيْن أو ثلاثاً آهة الاستحسان ، سمعتُها من شخص يلوح لى أنه من عمال القهوة ، وكانت آهاته كالحشرجة ... وأفسحوا أمامنا محلاً للرقص ، ورنَّتْ ضِحْكَةٌ نِسْوِيَّة ضعيفة ، ما كدت أسمعُها حتى خَفَقَ لها قلبى ، واهتزَّ فيه شعور غامض غريب . . . وأحسستُ أن شخصاً يقتربُ من مائدتنا ، ويضع عليها حَفْنَةً من اللُّب ، ثم سمعتُه يَصيح بالحاضرين أن يتأهَّبوا ليشاهدوا دَوْرَ الرقص العجيب ، فالتفتُّ إليه من غير وَعْيٍ ، وعرفتُه على التوّ ... ثم نكَّسْتُ رأسى ،

وقد خيِّلَ لى أنه شبحُ الماضى خارجاً من قبره يتكلم ! ... وظهر غيرَ بعيد منا رجلٌ طويلُ القامة ، بطربوش مُعْوَجّ ، ظاهر عليه التهدم والرَّثاثَة ، وأسند جسمه إلى دَكَّةٍ هناك ، وأخذ يرمقنا بنظراته البغيضة ، فما إن رآنى وعرَفنى ، حتى أدار وجهه عنى ، واندفع يَفْتِلُ شاربه بشِدَّة !

... وظهرت الراقصة ، وأخذت ترقُصُ على نغمات «التخت» والمُطَيِّب يصفق ، ويدعو الناس إلى الصمت والسكون . وكانت تدنو منا وهى تبتسم فى مَذَلَّةٍ كأنها تستجدى ، وتجتهد فى لَفْتِ نظرنا إليها باذلةً فى ذلك كلّ جَهد ، وكانت هزيلةً مَكْدُودَة رثَّة الملابس ؛ فجعلت أُرَاقِبها ، وعلى فمى ابتسامة مُرَّة ، وقد غَشِيَتْنى موجَةٌ من الأسى الدفين . وانطلق خيالى يَسْبَحُ فى أعقاب الماضى ، فإذا مواكب خمسةَ عَشَرَ عاما تتدافع أمام عينىَّ ... يا لَلَّهِ من تلك الذِّكْرَيَاتِ البعيدة ! ... إنها ما زالت كامنة مستقرةً فى الأعماق ، ولكنها حُطَامٌ بالٍ ، مهدمٌ بعضُه على بعض ... ظلال قاتمة ، باقية بالرغم من زوال أجسامها ... ها هى ذى الحجرة الحقيرة ذاتُ المنضدة والمقعدين ... زجاجات « الشمبانيا » ... النار المشبوبة فى

جوفى . . . الابتسامة الرائعة التى تَبْرُق دائما أمامى . . . الصَّخَبُ والهُتَاف . . . الأنوار . . . رنة الصَّنْجَات . . . ضحكتها . . . قبلة اليـــديْن . . . كأنى بالماضى يحيا ثانية ويتجَسَّم ! !

. . . . . .

واقتربتْ منا ، وابتسامتُها الذليلةُ ما تزال تتراءى على شفَتَيْها . وأخيراً عرَفتْنى ، فظهر عليها الدَّهَشُ والارتباك !

وبعد انتهاء دَوْرِ الرقص ، أخذتْ تَحُومُ حول مائدتنا تَتَمَسَّح كالهرة الجائعة ... فدعوتُها للجلوس ، فلبَّتْ مُسرعة ؛ وطَلبتُ لها طعاماً وشراباً ، فأقبلتْ عليهما بشَرَهٍ عجيب . وكانت ثيابُها المهلهلة تَشِفُّ عن سيقانٍ هزيلة ذابلة !

لم تُشِرْ إلى الماضى بكلمة قط ، وكنت أعجَب وأنا أُبادلها الحديثَ كيف مَرَّ بى زمن أحببت فيه هذه المرأة حُبَّ عبادة . . . ثم كيف نَقَمْتُ بعد ذلك عليها . . . هذه مخلوقة لا تستحقّ من العواطف أكثرَ من الشفقة ، الشفقةِ الساذَجة العـــابرة ! .

* * *

— ٢٢٢ —

ولما هممتُ بالخروج ، دسستُ فى يدها مقداراً من النقود ، ولم أقفْ لأستمعَ إلى كلمات الشكر التى انطلقتْ تَغْمُرُنى بها .

وحانتْ منى التفاتة إلى « الشربينى » مُنَافِسِى القديم ، فوجدته مُتَّكِئاً على الحائط ، وقد صرف عن الناس وجهَه ، وهو ما يزال يَفْتِلُ شاربَه ... !

الحج العجالي

المخ

دخل « نصّار افندى » قهوة « السلام » وهو ساخطٌ متبرّم ، يُغمغم بسباب مكتوم . ورمى بجسمه الهزيل على المقعد ، وطلب قهوةً وماء . وكان ممزَّقَ الثياب ، أغبرَ الوجه ، مصاباً بجروح فى رأسه وجَبهته ويديه ، ما زال الدم يتسايل منها . له هيئةٌ بغيضةٌ لا يَشْفَعُ لها ما يبدُو عليه من دلائل الألَم والهزيمة المنكَرة !

وسعَى إليه الخادم بما طلب ، ووقف أمامه برهةً يتأمَّلُه ، ثم قال :

ألم تكن تستطيع أن توفِّر على نفسك ما أصابك اليوم من أذى ؟ لقد سمعنا بما شَجَرَ بينك وبين السماسرة فى قهوة « زاخوره » . . . الكل يلقون التَّبِعَةَ عليك !

— علىّ أنا ؟ . . . الله يسامحهم . بالطبع أنا المحقوق ما دام يدَّعى ذلك « غَزَّال » و « مرزوق » و « الفوّال » . . . من يقدر أن يكذبهم ، وهم « البلطجية » الكبار ؟ !

وبلّ مِنديله القذر بالماء ، وأخذ يمسح به جروحه الدامية .

فقال الخادم :

اسمع يا نصار . . . الحق هو الحق . . . لا بلطجية ولا خلافه . الكل يقولون إنك أردت أخذ بيعة القطن منهم لمصلحة رئيسك « طناشى » .

فأجابه « نصار » وهو منهمك فى مسح جروحه :

وهل فى ذلك ما يؤاخَذ عليه ؟ المسألة مسألة شغل يا سيد عبد العظيم . . .

— المسألة مسألة شغل طبعاً ، ولكن ليس بالغشّ والدسّ والخديعة يانصار افندى !

فرفع « نصار » وجهه إليه ، وقال :

أنا الذى أدُسّ وأَغُش وأُخادع . . . أنا ؟ ! أما هم فملائكة ، ليس فى أعمالهم ظلم ولا عدوان . . . اعمل معروف ، اقصر لسانك . . .

فانصرف الخادم إلى عمله !

وزَفَرَ « نصار افندى » زفرة عميقة . . . إنه يشعر الآنَ وهو فى جِلْستِه بأن عظامه دُقَّت دقّا ، فلم يبق لها كيان مستقلّ

فى جسده ، بعد تلك المعركة الحامية . إنها أول هزيمة ينالُه بها أولئك الزملاء الأشرار . كانوا من قبلُ يقتصرون على تحقيره والنَّيل منه بألوان الشتائم والسِّباب ؛ ولكنها كلام والسلام . . . أما الضرب وما إليه من صفعٍ ورَكْل ، وما يجره من إراقة للدم ، ورَمْيٍ على الأرض ، وتمريغ فى الوحَل ، وتمزيق للثياب ؛ فهذا هو الجديد الذى لم يكن فى الحُسبان !

وأخرج « نصّار » لِفَافة هزيلة ، وانطلق يدخّنها ، وأخذ يعرض حياته أمام عينيه مفكّراً . لقد مَرَّتْ به عشرون عاماً فى خدمة « الخواجه طناشى » ... عشرون عاماً وحياته على ما هى عليه ، ضائعةٌ بين الأسواق والمَحْلَج وقهوة « زاخوره » ، وبين مكتبه حيث يجمع الأرقام ويطرحها ويضربها ، إلى ساعة متأخرة من الليل ، فى ضوء مصباح أعمش . عشرون عاماً وهو مندوب لمحل « طناشى إخوان » لم يَرْقَ دَرَجَة ، ولم ينل عِلاَوة . ويا ليته كان مندوباً بحق . . . لم يعقِد بنفسه صَفْقَةً واحدةً لبيع أو شراء ، ولم يذيِّلْ بإمضائه المتشعِّب الملتوى صكاً واحداً ، ولم يَعمُر جيبُه — الخالى دائماً — بتأمين ما . إن هذه الأوراق البهيجة اللامعة ، ذات العشرة جنيهات ، والخمسين جنيهاً ، لم تمسَّها يده مَرَّةً واحدة فى حياته

كلَّها . . . كيف إذاً تسامحوا معه ، فمنحوه لقب « مندوب »
على حين أنه لا يُشاركُ مندوبى الشركات والبيوت التِّجارية فى شىء إلَّا فى هذا المِعْطَف الطويل الأصفر ، وهـذا الطربوش الناصل الذى يُخَوِّل صاحبَه أنْ يحمل لقب « افندى » !
وما قيمة هذا اللقب عنده ؟ أوَ قد عَصمَه مرةً واحدةً من لسان رئيسه السليط ؟ الناس جميعاً شهود لـ « طناشى » بنبوغ وتفنُّن فى السبّ والشتم لا يقِلُّ عن نبوغه وتفنُّنه فى إدارة متاجره . . . ! !

إن أثقال هذه الأعوام العشرين كانت تتجمَّع فى هذه اللحظة ، وتنحطّ كالجبل على كَتفيه . . .

وأخذ « نصّار افندى » يجمع بِخنصره الحُثالة الراسبة من القهوة ، ويلعَقها فى تأنٍّ وتبلُّد ، وقد شرع الباعةُ الجوّالون يفِدون على « قهوة السلام » فيبعثون فيها بصياحهم و إلحاحهم شيئاً من النشاط . كان يراهم داخلين وخارجين ، فلا يكترث لهم ، ولا يُعيرهم من نظراته أدنى التفات . . .

ومرّ بجانبه فى ذلك الوقت قزَم أجردُ ، تملأ وجهَه التجاعيد ؛ يحمل على رأسه وِعاء من الصفيح ، ويصيح منادياً فى صوت مُخَنَّثٍ كريه : « المخّ العجّالى » ! !

وقد نشأ بين هذا القزَم و بين « نصار افندى » لون من سوء التفاهم ، لم يلبث أن انقلب إلى كراهية صامتة . فى حين أنه لم يسبِق بينهما تعارف منذ هبوطه الزقازيق ، والتحاقه بمحل « طناشى » . . . هناك تنافر رُوحىّ قائم بينهما ، فكلٌّ منهم يُبْغِض صاحبَه لله فى لله ! ... تتمثل هذه الكراهية فى النظرات المتَّقِدة التى يتبادلانها ، وفى التهكمات المرّة التى يتراشقان بها ...

منذ عشرين عاما يصيح ذلك الصوت المخنَّث مُلحًّا مُتعنِّتاً بالمخ العجّالى ؛ و « نصـــــار » لا يستطيع أن يُصِمَّ أذنيه عنه . . . منذ عشرين عاما يصبح « نصار افندى » ويُمسى يَتْبعه هذا الهيكل الآدمىّ البشِع ، وهو غيرُ واجدٍ سبيلاً إلى الفَكاك منه !

والعجب أن « نصار افندى » سَمِعَ عندَ قدومه مدينةَ « الزقازيق » طبيباً يقول مؤكِّداً : لن يعيشَ هذا القزَمُ أكثرَ من عشرين يوماً ! . . . وها قد مرت عشرون عاما ، مات فى أثنائها ذلك الطبيب ، وتَفَتَّتَتْ عظامه واندثرت ، وهذا القزَم قائم كالعقرب اللَّدُوغ ، يبتسم للناس عن أسنانه البارزة النَّخِرَة !

وأىّ مِخَاخٍ تلك التى يبيعها ؟ إنه يؤكّد أنها صابحة ، ولا جدال فى أنها كذلك ، صابحة بدمها الحارّ ، كأنها مِخاخُ القتلى معروضةً على المَشرحة . . . وهذه القُطعان المحتشدة من الذباب تسير مُحلّقةً على الوعاء ، تَتْبَعه فى سَيره كأنها سِربٌ من الطائرات يتأثّر جيشاً ، ثم تراها وقد ألهبها الجوع فحطّت على الغنيمة ، وأخذتْ تُعبّ من دمها ما شاءت أن تُعبّ ؛ و « نصار أفندى » يرمقها بعينيه ويُدَمْدم : قذارة ! قذارة ! . . . ثم لا يعتمّ أن يتلمّظَ بريقه ، إذْ تتمثّل له هذه المِخاخ متقلّبة على النار ، ينبعث منها دُخَان شَهِىٌّ الرائحة !

يا لله ! . . . شَدّما يَمقُت « نصار افندى » هـذا القَزَمَ الوَقِح !

لقد جاء القَزَم إلى « القهوة » ثم خرج ، ثم عاد ثم خرج ، وها هو ذا يحضُر الآن للمرّة الثالثة . . . و « نصار افندى » قابعٌ فى مكانه لم يتحرك !

إن « نصار افندى » ليتحمّلُ اليوم أدهَى مصيبة يَنْكُبُه بها القَدَر ، بل إنه ليرحّب بها ، ولكنه لا يُطيق رؤيةَ هذا القَزَم وهو يختلف إلى القهوة هاتفاً بالمخّ العَجّالى . . . !

وزَفر زَفرةً ملتهبة ، وأخذ يتململ فى مقعده ، وجعل يضرِب المائدة بقبضة يده . . . وما إن مرَّ بجانبه القَزَم يَتَخَلّع فى مِشيته ويطلق من حلقه الصوتَ المُخنّث ، حتى قفز « نصار افندى » من مكانه . . . وأمسك بِخِناق القَزَم وهو يصيح فيه :

اغْرُب من هنا ، أُحرّم عليك أن تريَنى وجهك حيث أكون . . . أفهِمتَ ؟ اختف عن ناظرىَ فى الحال !

ولم يدع للقَزَم فرصةً يردُّ فيها عليه ، أو يحقّق رغبته فى الاختفاء ، بل وَثبَ « نصار افندى » إليه وأنشب فيه أظافرَه ، وانهال عليه لَـكْماً ورَكلاً ، ثم أخذ يُطَوّح به يَمنة ويَسرة ، لا يكاد يرفعه حتى يهوى به !

وكان كلما تمادى ، شعَر بانتعاش ومرح . . . يا لله ! كيف عزَبتْ عن باله قبل اليوم تلك الفكرةُ المُوفّقه ، فكرة ضرب هذا القَزَم اللّعين ؟ ما أطيب هذه الراحة التى تغمر نفسَه ، وما أوفرَ هذا السرورَ الذى يَفيضُ على روحه !

إنه ليستقبلُ الحبْسَ بل الشنق ، راضياً ، فى سبيل هذا العمل المجيد ، وهذه البطولة الخالدة !

. . . . . وتكاثر الناس عليهما ، وأخذوا يُفرّقون بينهما !

وجلس « نصار افندى » على رصيف القهوة يَلهثُ ، وهو أغبر معفّر ، دامِى الوجه ، أشعثُ الرأس ، مُمَزَّقُ الثياب ؛ والناس من حوله يُسائلونه عما حدث . . .

فأخرج لِفافةً من عُلْبته ، وأشعلها فى تمهُّل ، وبدأ يدخّنها ، ثم وضع رِجْلا على رِجْل ، وقال :

لا تُلقوا بالاً لهذا . . . إنه أمر تافه . . . كثيراً ما اضطُرِرْتُ إلى تأديب أمثالِ هذا النذْل بهذه الطريقة . . . ! !

فهرس

	صفحة
المصادر التى ألهمتنى الكتابة	٣
فرعون الصغير	٢٥
غريم	٤٣
حزن أب	٦٥
غانية الحانة	٧٥
انقلاب	١٠١
أركان الوضوء	١١٥
عزرائيل القرية	١٢١
أفديك بالروح	١٣٣
رجل رهيب	١٥٥
زمان الهنا	١٨٣
غـــرام قديم	١٩٩
المخ العجالى	٢٢٣

تحت الطبع للمؤلف :

نداء المجهول

رواية قصصية

المطبوع للمؤلف :

ا — فى العربية :

الوثبة الأولى

الحاج شلبى

أبو على عامل أرتيست

الأطـــلال

الشيخ عفا الله

قلب غانيـــة

فرعون الصغير

نشوء القصة وتطورها

ب — فى الفرنسية :

غراميات سامى

Les Amours de Sami

Les ecrivains Contemporains 26 Rue des Tournelles. Paris IVe.

حـ — فى الألمانية :

مجموعـة قصص (اختارها وترجمها المستشرق السويسرى الدكتور ويدمار) .

Mahmüd Taimür

von Dr. G. Widmer

Arthur Collignon, Buch handlung für Kunst und Wissenschaft G. m. b- H. — Berlin N W 7.

عنوان المؤلف :

محمـــــود تيمور

٦ شارع الأمير حُسين بالزَّمَالِك

القـاهرة . مصر